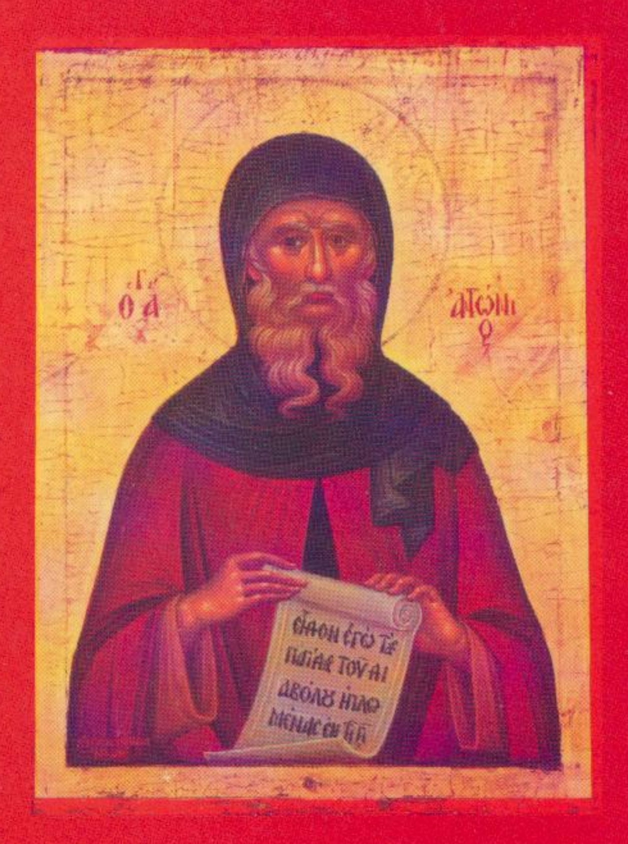
القـدّيسـون ،

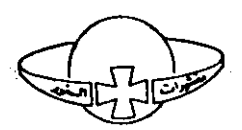
أنطونيوس الكبير



٧

أثناسيوس الكبير

رهبنة دير مار جرجس الحَرف


منشورات
النور

أثناسيوس الكبير / رهبنة دير مار جرجس الحرف

أنطونيوس الكبير

طبعة ثانية
١٩٩٥

منشورات النور

الفهرست

القسم الأول

سيرة
أبينا البار أنطونيوس

كتبها أبونا القديس أثناسيوس أسقف الإسكندرية
وأرسلها الى الرهبان الذين في البلاد الاجنبية

نقل هذه السيرة الأب ميشال نجم عن اليونانية القديمة وقد صدرت الطبعة الأولى منها عن منشورات معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي في البلمند، في كتاب «سيرة القديس انطونيوس الكبير». ولقد اعاد الأب نجم النظر في ترجمته الأولى ونقحها من اجل هذه الطبعة الثانية. وصدر عن منشورات النور من اعمال الأب ميشال نجم في الترجمة كتاب « المسيح في الأناجيل » من تأليف ف. كيزيتزش.

تمهيد[1]

انكم شرعتم في منافسة رهبان مصر منافسة شريفة ، لأنكم قررتم أن تماثلوهم أو أن تتفوقوا عليهم في ممارستكم الفضيلة . وها ان لديكم أدياراً وتعيشون حياة الرهبان . والمرء يقدر ان يمدح حقاً هذه الرغبة ، عسى أن يتممها الله بصلواتكم . لكن بما أنكم طلبتم مني أن أكتب لكم عن حياة المغبوط أنطونيوس، و ملؤكم الرغبة في ان تعرفوا كيف بدأ نسكه، ومن كان قبل ذلك، وكيف كانت نهاية حياته، وهل أن كلّ ما يُروى عنه صحيح ، وذلك لكي تقتدوا بغيرته ، قبلت برغبة قوية وصيتكم ، لأنّ ربحي كبير ، حتى عندما أذكر اسمه فقط . أعلم أنكم إذا سمعتم سيرة

١ ـ نجد في نص إفاغريوس هذه التحيّة : أثناسيوس الاسقف الى الاخوة في البلاد الاجنبية ..

حياته لن تعجبوا بالرجل فحسب ، بل سترغبون في الإقتداء بعزمه ، فحياة أنطونيوس بالنسبة للرهبان نموذج كاف للنسك . ففي الأمور التي سمعتموها ممن أخبركم عنه لا تشكّوا ، بل صدقوا أنكم سمعتم القليل عنه . فأولئك بالجهد أخبروكم هذا المقدار . أمّا أنا فبحثُكم لي ، أرسل لكم كل ما سأدوّنه في رسالتي ، مورداً القليل عن حياته . لكن لا تتوقفوا عن سؤال المبحرين إلى هناك . فإذا أورد المرء كل ما يعرفه عنه ، يستطيع جاهداً أن يكمل سيرته كما ينبغي . عندما تلقيت رسالتكم ، حرصت على استدعاء بعض الرهبان الذين اعتادوا زيارته بشكل متواتر ، حتى أتعلم منهم أموراً أكثر ، فأرسل لكم معلومات أوفر . لكن بما أن وقت إبحار السفن قد أوشك أن ينتهي ، وحامل الرسالة مسرع في الذهاب ، كتبت إلى ورعكم كل ما أعرفه « لأنني رأيته مراراً » وكل ما استطعت أن أعرفه منه ، لأنني لازمته وقتاً طويلا ، وسكبت في يديه ماء ، كما اعتنيت بأن تكون كل الأمور حقيقية . إذا ما سمع أحدكم شيئاً أكثر فلا يشك في الرجل ، أمّا إذا سمع أقل ، فعليه ألاّ يحتقره.

ميلاده ونشأته

١ ـ كان أنطونيوس مصريّ النسب ، وكان أهله من أعيان البلد ، و ذوي ممتلكات عديدة. وكانوا مسيحيين فتربّى تربية مسيحية . ونشأ عند والديه دون أن يعرف غيرهما ، و دون أن يعرف ما هو خارج البيت . وعندما شبّ وتقدم في السن رغب عن تحصيل العلم ، لأنه أراد أن يتجنب معاشرة الآخرين . وكان مراده أن يقيم في البيت كإنسان بسيط ، كما كُتب عن يعقوب[١]، غير أنه كان يرافق أهله في ذهابهم إلى الكنيسة . فلم يتهاون وهو صبيّ في الذهاب إلى الكنيسة ، كما أنّه لم يزدر بهذا عند بلوغه ، بل كان مطيعاً لوالديه يصغي إلى كل ما يُقْرأ حافظا في قلبه الفائدة التي تأتيه منه . ورغم الثروة الكافية فإنه لم يزعج أهله بطلب المأكولات الفاخرة والمتعددة ، ولم يكن يسعى إلى اللذات التي تأتي منها ، بل يكتفي بما يجده ولا يطلب المزيد .

٢ ـ بقي أنطونيوس وحيداً مع أخته الصغيرة جداً بعد موت أبويه. وكان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة تقريباً أو أنه كان بلغ العشرين. فاهتم بالبيت وبأخته. وما ان مضت ستة أشهر على موت والديه وبينما كان ذاهباً الى الكنيسة

١ ـ «كان يعقوب رجلاً مسالماً» او كاملاً «يلزم الخيام» (تك ٢٥ : ٢٧).

حسب عادته أخذ يفكر كيف ترك الرسل كل شيء وتبعوا المخلص وكيف كان مسيحيو أعمال الرسل يبيعون ممتلكاتهم ويلقون ثمنها عند أقدام الرسل ليوزعوها على الفقراء (أعمال ٤ : ٣٥)، و أي رجاء كان ينتظرهم في السماء. ثم دخل الكنيسة وهو يفكر في هذا، وصدف أن قرىء الإنجيل فسمع السيد يقول للغني: «إن أردت أن تكون كاملا، فاذهب و بع كل ما تملكه و وزّع ثمنه على الفقراء فيكون لك كنز في السماوات، وتعال اتبعني» (متى ١٩ : ٢١). وكأن أنطونيوس حصل على نعمة من الله في تذكره القديسين، وكأن المقطع الإنجيلي قرىء له وحده، فللحال خرج من الكنيسة، و وهب كل الممتلكات التي ورثها عن والديه (وكانت ثلاثمئة فدّان من الأرض الجيدة والكثيرة الخصب) إلى أبناء قريته، كي لا تزعجه وتزعج أخته. ثم باع الممتلكات المنقولة، فجمع من ثمنها مالا كافياً، ووزّعه على الفقراء، محتفظاً بالقليل لأخته.

دعوته الرهبانية وانتصاره على حرب الشيطان

٣ ـ عندما دخل الكنيسة ثانية وسمع في التلاوة الإنجيلية أن الرب يقول « لا يهمكم أمر الغد » (متى ٦ : ٣٤) لم يحتمل البقاء ، فخرج و وزّع الباقي على الفقراء،

وأودع أخته عند عذارى أمينات ومعروفات ، ثمّ وضعها في بيت للعذارى لتتربى فيه ، وتفرّغ للنسك قرب بيته متأملا في ذاته ، ومتدرباً على الصبر ، لأنه لم يكن في مصر أديار دائمة ، ولم يكن الرهبان على علم بالصحراء الكبرى بعد . فكل من أراد التأمل كان يمارس النسك متوحداً قرب بيته . وفي ذلك الوقت كان في القرية المجاورة شيخ يمارس النسك منذ شبابه ، فلما شاهده أنطونيوس اشتعل في قلبه حماس مقدس . هكذا أقام في أول الأمر في أماكن قرب قريته . وكلما سمع بوجود ناسك عظيم انطلق من هناك مفتشاً عنه كالنحلة الحكيمة . فكان لا يرجع إلى مكانه إلا بعد أن يراه ، فيتزوّد بالأمور النافعة روحياً في طريق الفضيلة ، ثم يرجع إلى مكانه .

وإذ أقام في الأيام الأولى من نسكه هناك صمّم على عدم العودة إلى الإهتمام بالأمور العائلية ، وعلى عدم تذكّر أقربائه ، فثبّت كل رغبته وغيرته على قوة النسك . وكان يقوم بأعمال يدوية ، لأنه سمع قول بولس : « من لا يريد ان يعمل لا يحق له أن يأكل » (٢ تسا ٣ : ١٠) . قسم من نتاج عمله كان من أجل قوته ، والقسم الآخر كان يوزّعه على الفقراء . كان أنطونيوس يصلّي باستمرار ، عالماً انه

ينبغي أن يصلّي في الخفية بلا انقطاع (أنظر متى ٦ : ٦ ، ١ تسا ٥ : ١٧) . وكان يصغي أيضاً إلى تلاوة الكتاب المقدس ، حتى لا يسقط شيء مما يقرأه على الأرض ، فيحفظه ليكون في ذاكرته بدل الكتاب المقدس .

٤ ـ أصبح محبوباً من الجميع ، لأنه روّض نفسه على الفضيلة . كان مخلصاً في طاعة النسّاك العظام الذين كان يزورهم ، وتعلّم ميزات الغيرة والنسك التي كان يتمتع بها كل منهم . فرأى في الواحد الفرح ، وفي الثاني الرغبة في الصلوات الطويلة . وفي هذا عرف التحرر من الغضب ، وفي ذاك الإحسان . وكان يوجّه انتباهه إلى من يسهر وإلى من يحب العلم . كما أعجب بمن يحمل نفسه على كثرة الصبر ، وبمن ينام على الأرض . فكان ينظر بانتباه إلى وداعة هذا ، وإلى طول أناة ذاك . لاحظ كذلك إيمانهم بالمسيح ومحبتهم لبعضهم البعض . فعاد إلى نسكه ممتلئاً ومجاهداً لجمع كل هذه الصفات في نفسه ولإظهارها في ذاته . ولم يحاول أن ينافس الرهبان الذين هم في مثل سنه ، سوى أنه لم يظهر أدنى منهم في اكتساب الفضائل . هو فعل هذا الأمر ، حتى لا يحزن أحداً منهم بل ليفرحوا لجهده هذا ولمّا رآه أبناء قريته ومحبو الصلاح الذين كانوا يجتمعون به ، عائشاً بهذه الطريقة ، سمّوه حبيب الله . كما أن بعض

الناس استقبلوه كابنهم وبعضهم الآخر كأخيهم .

٥ ـ لكنّ الشيطان ، عدو الخير ، والحسود لم يطق أن يرى في هذا الشاب كل ذلك العزم ، فأخذ يقاوم كل ما يصمم على فعله . في البدء ، حاول ان يهدم حياة أنطونيوس النسكية مذكراً إياه بممتلكاته ، وبالعناية بأخته ، وبمودة أقربائه ، وبمحبة المال ، وبالمجد الفارغ ، وبالأطعمة ، وبلذائذ أخرى من الحياة ، وأخيراً ذكّره بصعوبات الفضيلة ، وبما تتطلبه من جهد . وأظهر له كذلك ضعف الجسد وطول الوقت ، وأثار في ذهنه الأفكار القبيحة محاولا أن يثنيه عن عزمه القويم . لكن عندما رأى نفسه ضعيفاً أمام غيرة أنطونيوس ، بالأحرى عندما أدرك هزيمته أمام ثباته ، وانكساره أمام إيمانه العظيم ، وسقوطه أمام صلواته المستمرة ، وضع ثقته بالسلاح الموجود «في عضل بطنه» (أيوب ٤٠ : ١٦) وافتخر به (هذه هي الفخاخ الأولى المنصوبة ضد الشباب) ، فهاجم الشاب وسبّب له ضجة أثناء الليل وأزعجه في النهار ، حتى ان الذين يشاهدونه كانوا يدركون الصراع الذي بينهما . فالشيطان أثار فيه الأفكار القبيحة ، أمّا أنطونيوس فكان يقاومها بالصلاة . جرّبه أيضاً عن طريق الدغدغة ، أمّا هو فاحمرّ خجلا ، وحصّن جسده بالصوم والصلوات . لكنّ ذلك الشقي ظهر له في الليل

كامـرأة مقلـداً كل التصرفـات النسـائية، حتـى يخـدع أنطـونيوس، أمّـا هو فكان يفـكر في المسيح، وفي نبلـه المسيحـي، وفي روحـانية النفس، فأخمـد جمـرة خداع الشيطان. ان العدو أشار إلى حلاوة اللذة، لكنّ ذلك امتلأ غضباً وحزناً وأخذ يفكر في تهديد النار وألم الدود مقاوماً هذه الأمور، وخارجاً منها بدون أذى. هذه كانت من أجل خزي العدو. فمن كان يظن بأنه سيصبح مشابهاً لله (أشعياء ١٤ : ١٤) يسخر منه الآن شاب، ومن افتخر على اللحم والدم يغلبه إنسان يحمل جسداً. فالرب كان يعمل معه، إذ لبس جسداً لأجلنا وأعطانا بجسده النصر على الشيطان، حتى أن كل من جاهد بقوة استطاع ان يقول : «ولا أنا، بل نعمة الله التي هي معي» (١ كور ١٥ : ١٠).

٦ - إذن ، عندما عجز التنّين (الشيطان) عن الإنتصار على أنطونيوس بهذه الطريقة ، بل وجد نفسه مطروداً من قلبه ، أخذ يصرّ بأسنانه ، كما كُتب[1]، وكأنـه خرج عن طوره . فمثلما يوجد في الذهن ، هكذا ظهـر له في الخيال كعبد أسود . ولكونه مخادعاً لم يعد يهجم عن طريق الأفكار الشريرة (لأن الغاش طرد) ، بل عن طريق صوت بشري

١ - أنظر ١ بط ٥ : ٨ ومر ٩ : ١٨ . النص هنا يشبه حرفياً مر ٩ : ١٨ إلاّ انه يشبه ١ بط ٥ : ٨ من حيث المعنى.

قائل : خدعت الكثيرين وانتصرت عليهم ، لكنني كما هجمت على كثيرين هجمت عليك وعلى جهاداتك غير أنني ظهرت ضعيفاً . وعندما سأله أنطونيوس : من أنت يا من تقف بقربي وتقول هذه الأقوال ؟ للحين أخرج ذاك أصواتاً محزنة وقال : أنا هو صديق الزنى ، أنا من ينصب فخاخ الزنى ، ويثير الدغدغة في الشباب ، لذلك دُعيت روح الزنى . كم من الذين أرادوا الزهد خدعت ، وكم من الذين حافظوا على العفة أقنعتهم بدغدغاتي . وأنا من لأجلي وبّخ النبي الذين سقطوا إذ قال : « روح الزنى أضلّهم » (هوشع ٤ : ١٢) لأنني أعثرتهم . أنا من أزعجتك مرات عديدة ، لكنك كنت تنتصر عليّ فيها جميعاً . أما أنطونيوس فشكر الرب وواجه الشيطان بشجاعة قائلا له : أنت تستحق كل احتقار ، أنت مظلم العقل وعديم القوة مثل ولد صغير . لن أهتمّ بك فيما بعد لأن « الرب عون لي ، وأنا أزدري بأعدائي » (مزمور ١١٧ : ٨) . عندما سمع ذلك المظلم هذه الأمور هرب للوقت بأصوات مخنوقة من الخوف غير متجاسر على الإقتراب من الرجل .

٧ ـ هذا هو صراع أنطونيوس الأول ضد الشيطان ، بل ان هذا الإنتصار هو انتصار المخلّص في أنطونيوس ، فهو

«حكم على الخطيئة في الجسد، ليتمّ ما تتطلبه منّا أحكام الشريعة، نحن السالكين سبيل الروح لا سبيل الجسد» (رومية ٨: ٣ - ٤). لكنّ أنطونيوس لم يظهر تكاسلا أو تراخياً، لأنه انتصر على الشيطان، كما أن الأخير لم يتوقف البتة عن نصب الفخاخ، لكونه قد هُزم، بل كان يلتفّ حوله كالأسد محاولا أن يجد علّة ضده، لكنّ أنطونيوس الذي تعلّم من الكتاب ان مكائد الشيطان كثيرة كان ينسك نسكاً قاسياً، لأنه كان يعتقد أن الشيطان إذا لم ينجح حتى الآن في أن يخدع قلبه بلذة جسدية، فسيحاول بوسائل أخرى أن ينصب له شركاً، لأن الشيطان صديق الخطيئة. لذلك كان يقسو على جسده ويستعبده أكثر فأكثر، خوفاً من أن يقع في خطيئة ما بينما انتصر في أخرى.

من هنا أراد أن يتعوّد النسك القاسي. وفي حين أن الكثيرين تعجبوا منه، فقد تحمّل التعب بسهولة، لأن نشاط نفسه قوّي في ذاته العادة الحسنة هذه، حتى انه إذا تلقى توجيهاً صغيراً من الآخرين، أظهر حماساً كبيراً له. كثيرا ما كان يقضي الليل ساهراً، ولم يفعل هذا لمرة واحدة، بل لمرّات عديدة، حتى أثار الإعجاب، وكان يأكل مرة واحدة في النهار بعد غروب الشمس، وتارة مرة كل يومين، وأحيانا كثيرة مرة كل أربعة أيام. وكان طعامه

خبزاً وملحاً وشرابه الماء وحده . ومن النافلة التكلم على اللحم والخمر ، لأن المرء لا يقدر أن يجدها عند النسّاك الآخرين العظام في تلك المنطقة .

كان يكتفي ببساط للنوم ، وفي أغلب الأحيان كان ينام على الأرض ، كما توقف عن مسح نفسه بالزيت (والمقصود به الصابون) قائلا انه ينبغي على النسّاك الجدد أن يرغبوا في ممارسة التقشف ، غير مستخدمين كل ما يجعل الجسد متكاسلا ، لكي يعتاد القسوة ، لأنه كان يفكر في قول الرسول : « لاني عندما أكون ضعيفاً أكون قوياً » (٢ كور ١٢ : ١٠) . لذلك كان يقول ان عزم النفس يقوى عندما تضعف ملذات الجسد . كان حقاً ذا ذهنية غريبة لأنه لم يكن يقيس تقدمه في الفضيلة ، ولا توحّده من أجل اقتنائها ، بل انه بالغيرة والقصد نسي الماضي وجاهد بقوة من أجل تقدمه الروحي ، حتى أنه كان يبدأ حياته النسكية من جديد كل يوم ، مذكراً نفسه بقول الرسول : « أنا أنسى ما ورائي وأجاهد إلى الأمام » (فيليبي ٣ : ١٣) ، وموردا آية النبي إيليا القائل : « حي هو الرب الذي أنا حاضر أمامه اليوم » (٣ ملوك ١٨ : ١٥) . فلاحظ أن النبي بقوله « اليوم » لم يقس الزمن الماضي ، بل اجتهد ، وكأنه يبدأ كل يوم ، في أن يظهر ، كما ينبغي ، أمام الله طاهر القلب

ومستعداً لإطاعة مشيئته ، وليس لأي شخص آخر . وكان يقول في داخله ان الناسك الذي يستفيد من سيرة إيليا العظيم يجب أن ينظر دائماً إلى حياته كما في مرآة .

٨ - وإذ أراد التضييق على نفسه قصد القبور الموجودة بعيداً عن القرية . ولما طلب من أحد معارفه ان يجلب له خبزاً لأيام عديدة دخل أحد القبور ، فأغلق صاحبه الباب دونه وبقي في الداخل وحده . عندها لم يحتمل العدو هذا الشيء ، لأنه خاف من أن يملأ الصحراء شيئاً فشيئاً بنسكه . فدنا منه في إحدى الليالي مع جمهرة من الشياطين ، وجرّحه كثيراً حتى أنه سقط على الأرض لا يقوى على الكلام من شدة العذاب. و أنطونيوس نفسه أكّد أن الآلام كانت شديدة حتى ان ضربات الإنسان ، كما يقول ، لا تسبب ألماً لا يُحتمل كهذا . لكن بعناية إلهية - لأن الرب لا يتغاضى عن الذين يضعون رجاءهم عليه - أتى صاحبه في اليوم التالي جالباً له الخبز . وعندما فتح الباب رآه ملقى على الأرض كالميت ، فأخذه بيديه وحمله الى الكنيسة التي في القرية ، ووضعه على الأرض . فأتى كثير من أقاربه ومن أهل القرية فجلسوا بجواره ، وكأنهم بجوار ميت . لكنّ أنطونيوس عاد الى وعيه في نصف الليل ، فرأى الجميع نياماً ، ما عدا صاحبه ، فأومأ إليه برأسه ليقترب منه ورجا منه أن يحمله على

يديه ويعيده إلى القبور دون أن يوقظ أحداً .

٩ - فحمله الرجل وأغلق الباب كالعادة ، ليبقى وحيداً في الداخل . لكنه لم يقو على الوقوف بسبب جراحاته ، فاستلقى على الأرض وأخذ يصلّي . ولما أنهى صلاته صرخ بقوة : أنا هو أنطونيوس أنا هنا . انني لن أهرب من جراحاتكم ، حتى لو أصبتموني أكثر « فلا شيء يفصلني عن محبة المسيح » (رومية ٨ : ٣٥) . ثم أخذ يرتل قائلا « ان اصطفّ عليّ عسكر ، فلن يخاف قلبي » (مزمور ٢٦ : ٣) . هذه هي الأمور التي قالها الناسك وآمن بها ، لكنّ كاره الصلاح اندهش من تجاسره على العودة إلى القبور بعد كل هذه الجراحات ، فجمع كلابه - الشياطين - وقال لهم بعد ان تمزق غضباً : انظروا اننا ما استطعنا ان نوقفه بروح الزنى أو بالضربات ، بل انه يتواقح علينا جداً ، فلنهجمنّ عليه بطريقة أخرى . وبما أنه يسهل على إبليس اتخاذ أشكال شريرة ، فقد أخذ يُحدث في الليل ضربات قوية ، إلى درجة تجعل الإنسان يظن أن المكان يتزلزل ، وبأنه ثقب حوائط البييت[1] الأربعة، فبدت وكأنها تدخل منها ، آخذة شكل الحيوانات المتوحشة والزحافات . فامتلأ

---

١ - بُيَيْت تصغير بيت.

البيت للحين بأشكال الأسود والدببة والنمور والثيران والأفاعي والأصلال والعقارب والذئاب ، وأخذ كل حيوان يتحرك وفق طبيعته . فالأسد بدأ بالزئير عليه مريداً الإنقضاض ، والثور بدا وكأنه يضربه بقرنه ، والأفعى بدأت زحفها ، لكنها لم تقترب منه ، والذئب حاول الهجوم عليه لكنه لم يفعل . فكان ضجيج الأشباح مخيفاً وغضبهم عنيفاً . لكن في الوقت الذي كان يُجَلَد فيه أنطونيوس ويُنْخَس، شعر بألم جسدي أشد . إنه كان يضطجع بنفس ساهرة وغير مضطربة ، ويئن من الألم الجسدي ، لكنّ عقله كان صاحياً . قال وهو يهزأ بالشياطين : لو كنتم تملكون أية قوة يكفي أن يأتي حيوان واحد منكم ، لأن الربّ جعلكم عديمي القوة . لذلك حاولتم ان تخيفوني بجمهرتكم ، لكنّ علامة ضعفكم هي تقليد لأشكال الحيوانات غير الناطقة .

هنا تشجع أنطونيوس أكثر وقال : ان كنتم ذوي قدرة أو إن حصلتم على قوة ضدي ، فلا تتأخروا في الهجوم عليّ ، وإن كنتم لا تقدرون عليّ فلماذا تهتاجون عبثاً . فإن سوري وحصني بالسلامة هو إيماننا بالرب . وهكذا قامت الشياطين بمحاولات عديدة ضده صارفة بأسنانها ، لكنها كانت تضحك على نفسها وليس عليه .

١٠ ـ إلاّ أن الرب لم ينس صراع أنطونيوس ، فسارع إلى نجدته . ورفع أنطونيوس ناظريه إلى فوق فرأى السقف وكأنه ينفتح شيئاً فشيئاً ، ورأى شعاعاً من النور ينزل عليه . فجأة اختفت الشياطين وتوقف للحين ألم جسده وعاد البناء كاملا . وحينما أحسّ بالمساعدة تنفس الصعداء وتوجّه إلى المشاهدة الإلهية ، بعدما ارتاح من الآلام ، قائلا : أين كنت ؟ لماذا لم تظهر في البدء ، كيما تريحني من العذاب ؟ فأتاه صوت يقول له : كنت هنا يا أنطونيوس ، لكني كنت أنتظر جهادك . ولكن بما أنك صبرت على العذاب ولم تُهْزم ، فسأكون لك عوناً على الدوام ، وسأعمل كيما يكون اسمك معروفاً في كل مكان . ولما سمع هذا نال قوة حتى انه نهض وصلّى ، وأحسّ بأن جسده صار أشد قوة من ذي قبل . حدث هذا عندما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره .

١١ ـ في اليوم التالي خرج بزخم أقوى في اتقائه لله . وانطلق الى الشيخ القديم راجياً إياه ان يسكن معه في الصحراء . لكنّ الشيخ رفض بسبب سنه ، ولأن هذا كان غير مألوف في تلك الآونة . فانطلق في الحال الى الجبل . أما العدو فكان ينظر إلى غيرته وهو يحاول أن يقاومها ، فألقى في الطريق قرصاً فضياً كبيراً . لكنه أدرك حيلة كاره الخير ،

فنظرَ إلى القرص ووبّخ الشيطان الذي فيه وقال : كيف وُجد هذا القرص في الصحراء ؟ ان الطريق ليس مألوفاً ، ولا أثر فيه يشير إلى مرور أناس من هنا . كما أنه لو سقط لآثار الإنتباه ، لأنه كبير الحجم ، ولو رجع الذي أضاعه ليفتش عنه ، أما وجده ، لأن المكان مقفر. إذن إنه من حيل الشيطان. فلن تعيقني عن هذا الحماس أيها الشيطان ، «إلى الهلاك انت وما لك» (أعمال ٨ : ٢٠) . وفيما يقول هذا اختفى القرص «كالدخان أمام النار» (مزمور ٦٧ : ٢) .

١٢ ـ وعندما تقدم في الطريق رأى ذهباً حقيقياً ملقى على الطريق . لكنّ أنطونيوس لم يخبرنا ، ونحن لم نعلم ، إن كان العدو هو الذي أراه إياه أو انّ قوة أعظم أرادت ان تمتحن المجاهد ، وأن تظهر للشيطان انه لا يهتم بالمال ، إنما نعرف ان ما ظهر كان ذهباً . تعجب أنطونيوس من كمية الذهب ، لكنه عبر فوقها ، وكأنه يعبر فوق النار ، فلم يرجع رأسه إلى الخلف . بل أخذ بالركض بسرعة ، حتى يختفي المكان فينساه . ومن ثم وجد عبر النهر حصناً مهجوراً منذ زمن مليئاً بالزحافات . فعبر إليه وسكن فيه . وللحين هربت الزحافات ، بل قل أن أحداً طردها . فأقام حاجزاً على مدخله ، واختزن خبزاً لمدة ستة أشهر (كما كانت عادة

الطيبين، الذين كثيراً ما حفظوا الخبز سليماً لمدة سنة كاملة).
وبما ان الماء كان متوفراً داخله، لزمه متوغلا فيه، فمكث فيه دون أن يخرج لزيارة أحد و دون أن يرى أحداً من الـذين كانوا يزورونه. وهكذا أمضى وقتاً طويلا، في نسكه، لكنه كان يقبل الخبز مرتين في السنة من السقف.

١٣ ـ لم يكن يسمح لمعارفه الذين كانوا يأتون لزيارتـه بالدخول، وفي كثير من الأحيان كانوا أثنـاء انتظارهـم في الخارج ليل نهار يسمعون ضجيج جمهرة من الناس وكأنهـا تتضارب وتتصارخ يائسة وهي تقول : ابتعد عن أماكننا، ما علاقتك بالصحراء ! فلن تستطيع احتمال مكيدتنا . وكان الذين في الخارج يظنون في البدء أن جماعة من الناس دخلت بواسطة السلالم، وأخذت في العراك معـه . لكن عندمـا كانوا ينحنون وينظرون من ثقب البـاب، كانـوا لا يرون احداً ويدركون أنها الشياطين، فيخافون ويطلبون مساعدة أنطـونيوس . بيد أن أنطـونيوس كان يصغـي إلى أصـوات الزائرين، غير مكترث بالشياطين . بل كان يدنو من الباب ويرجونهم أن يرحلوا، حتى لا يخافوا وكان يقـول لهـم إن الشياطـين تخلـق رؤى للجبنـاء . لذلك ارسمـوا إشـارة الصليب و اذهبوا بشجاعة و اتركوا هؤلاء يضحـكون على أنفسهم. فكانوا يتحصّنـون بإشـارة الصـليب ويرحلون.

أما هو فلم يمسه أذى ولـم يتـراخ في جهـاده ، إذ أن قوى الرؤى الإلهية وضعف الأعداء أراحـاه من الآلام وأعـطياه حماساً أشد . واعتاد معارفه أن يأتوا إليه وهم يظنون أنهـم سيجدونه ميتاً ، لكنهم كانوا يسمعونه وهو يرتل «ليقم الله ولتَبدد أعداؤه . وليهرب مبغضوه من أمام وجهه. كما يتبدد الدخان يتبددون ، وكما يذوب الشمع أمام النـار ، يذوب الخطأة أمام وجه الله » (مزمور ٦٧ : ١ - ٢) . « أحدقت بي جميع الأمـم ، و باسـم الـرب قهرتهـا » (مزمـور ١١٨ : ١٠).

زيارة النسّاك الجدد له وتوحّدهم

١٤ - انقضت عشرون سنة دون أن يخرج أو أن يراه أحد باستمرار وهو ينسـك بمفرده على هذا النحـو . بعـد هذه السنين ، لمّا رغب و أراد كثير من الناس أن يقلّدوا نسكه ، أتى معارفه وفتحوا الباب عنوة . فخرج أنطـونيوس وكأنـه يخرج من الهيكل وهو يحمل الله ويتلقن سرّه،فكانت المرة الأولى التي يظهر فيها خارج الحصن . فتعجبوا منه ، لأنهم رأوا جسده في حالته المعتادة ، أي أنه لم يترهل كشخص لم يمارس رياضة بدنية ، ولم يضعف بسبب كثرة الأصـوام وصراعه مع الشيطان . انه هو نفسه كما عرفوه قبل اعتزاله

الطويل . فسجية نفسه كانت طاهرة . والأسى لم يتحكم به . عقله لم يتشتت قط من جراء أية لذة . ولم يكن عابساً ولا ضاحكاً . وحينما رأى الجمع لم يضطرب ، كما لم يفرح بمعانقة الكثيرين له . فكان عقله راجحاً وحالته طبيعية . كان هو نفسه دائماً . والرب شفى بواسطته أمراض عدد كبير من الحاضرين ، وطهّر آخرين من الشياطين . الرب أعطاه نعمة كبيرة في الكلام ، فعزّى كثيرين من الحزانى وصالح المتخاصمين . وفي نهاية حديثه قال لهم إنه ينبغي ألا نضع في العالم شيئاً أرفع من محبة المسيح . وكان يحدثهم حاثّاً إياهم على تذكر الخيرات الآتية ، والمحبة التي أظهرها الله للإنسان «الذي لم يبخل بابنه بل أسلمه إلى الموت من أجلنا جميعاً ، كيف لا يهبنا معه كل شيء» (رومية ٨ : ٣٢) . فأقنع الكثيرين باختيار حياة التوحد . وهكذا قامت الأديار على الجبال ، وتحوّلت الصحراء الى مدينة يقطنها الرهبان الذين خرجوا من تلقاء أنفسهم وكتبوا أسماءهم في الموطن السماوي .

١٥ ـ احتاج مرة إلى عبور قناة أرسينويتيس[1] (لأن زيارة الإخوة كانت ضرورية) وكانت مليئة بالتماسيح . فاكتفى

---

١ ـ تقع في منطقة الفيّوم اليوم.

بالصلاة ثم دخل المياه مع الذين كانوا معه عابـرين القنـاة بدون ضرر . وعندما رجع الى الدير أكمل الجهاد الشريف والقوي . وفي حديثـه مع الرهبـان الجـدد ملأهـم حماسـاً وحثّهم على عشق النسك . وبجاذبية أقواله تأسست بسرعة أديار متعددة ، فكان هو يرشدهم كأب .

عرض خبرته للنسّاك

١٦ - خرج مرةً إلى الخارج فاقترب منه جميع الرهبان وطلبوا ان يسمعوا منه كلمـة فقـال لهـم باللغـة المصرية : الكتاب المقدس كاف للتعليم ، لكن من الحسن أن يشدّد الواحـد الآخـر في الإيمـان ، و أن نطيّب النفس بالـكلام الروحي . فيا أولادي احملوا الى أبيكم كل ما تعرفونه ، وأنا سأنقل لكـم ما أعرفه من خبرتي ، لأنني أكبر منكم سنـاً . لتكن هذه الغيرة مشتركة عند الجميع ، ولا نفكرنّ في الرجوع إلى الحياة الدنيوية بعد أن بدأنا ، ولا نخضعنّ عقلنا للشر ، ولا نقل إننا عتقنا في الحياة النسكية ، بل ليزد حماسنا أكثر فأكثر ، وكأننا نبدأ كل يوم . حياة الإنسان قصيرة جداً إذا ما قيست بدهور الحياة الآتية ، بل إن كل حياتنـا الأرضية لا تساوي شيئاً أمـام تلك . كل ما في العالـم نقايضـه بشيء يساويه ، أما وعد الحياة الأبدية فيشترى بسعر قليل جداً .

لقد كُتب « أيام حياتنا سبعـون سنـة و إن كانت مع القوة فثمانون ، ومعظمها كدّ وعناء » (مزمور ٨٩ : ١٠) ، أي إذا ثبتنا في النسـك لمدة ثمانـين أو مئـة سنـة ، فلن نتملّك (نصبح ملوكاً) لمئة سنة فقط ، بل إلى دهر الداهرين . وفي حين اننا نجاهد على الأرض ، فلن نرث ما عليها ، لأننـا سنحصل على الوعود في السماوات . وفي حين أننا نترك على الأرض جسداً ميتاً ، فسنحصل في السموات على جسد غير فاسد .

١٧ ـ يا أولادي ، يجب علينا ألا نفقد حماسنا ظانين اننا عتقنا في النسك ، أو أننا حققنا شيئاً عظيماً . « إن آلامنا في هذه الحياة لا توازي المجـد الـذي سيظهـر فينـا » (رومية ٨ : ١٨) . ويجب أيضاً ألا ننظر الى العالم وكأننا تركنا أموراً عظيمة . ان هذه الأرض صغيرة جداً إذا قيست بالسماء كلها . فلو اتفق ان كنّا أسياد الأرض ، ورفضنا كل شيء فيها ، فهذا لا يستحق مقارنته بأي شيء في ملـكوت السماوات . هذا النكران هو كمن يزدري درهماً نحاسياً ، حتى يربح مئة درهم ذهبي . فإذا كانـت الأرض كلهـا لا تساوي شيئاً بالنسبة إلى السماء ، فمن ترك بعض الحقـول يكون كمن لم يترك شيئاً . إذا ما تركتم بيتاً أو ذهباً كثيراً فلا

تفتخروا ولا تكتئبوا ، لأنه ينبغي أن ندرك انه إذا لم ننكر كل شيء من أجل الفضيلة ، فإننا سنتركها حتماً عند الموت، وفي الأغلب لأناس لا نريدهم ، كما يذكر كاتب سفر الجامعة (أنظر الجامعة ٤ : ٨) . إذن ، لماذا لا ننكر كل هذه الأمور من أجل ان نرث الملكوت ؟ لا نظهرنّ رغبة في الحصول على النعم المادية ، إذ ما فائدة الحصول على أمور لن نستطيع أن نأخذها معنا ؟ فلماذا لا نقتني الأمور التي نستطيع أن نأخذها معنا وهي التعقل والبر والفطنة والرجولة والحصافة والمحبة والرحمة والإيمان بالمسيح واللاغضب ومحبة الغرباء ؟ ان اقتنيناها نجدها قبلنا هناك ، حيث ستهيء لنا ترحيباً في أرض الودعاء .

١٨ - على الواحد منّا أن يقنع نفسه بهذه الأفكار غير متراخ فيها ، وعلى الأخص إذا فكّر في انه عبد الرب وأن من واجبه خدمة السيد . فكما لا يجرؤ العبد على القول : إنني اشتغلت في الأمس فلن أشتغل اليوم ، بل انه لا يتوقف عن العمل ، إذ لا يحسب الأيام التي أشتغل فيها ، بل يظهر النشاط عينه (كما كتب في لوقا ١٧ : ٧ - ١٠) كي يعجب سيده ، وكي لا يعرّض حياته للخطر ، هكذا فلنثبت في نسكنا كل يوم عالمين بأننا إذا تهاونا يوماً واحداً ، فلن يسامحنا

الله من أجل ماضينا الحسن ، بل سيغضب علينا لتهاوننا .
هذا ما سمعناه من النبي حزقيال (في الفصل ١٨) بأن يهوذا
خسر في ليلة واحدة تعب الماضي .

١٩ ـ لننصرف إلى حياة النسك من دون تهامل ، لأن
الرب يتداءب معنا ، كما كُتب: «ان كل الأشياء تعمل معاً
لخير الذين يحبون الله » (رومية ٨ : ٢٨) . ولكي لا نقع
في التهامل يحسن ان نعتبر بقول الرسول:« إنني أموت كل
يوم » . إذا ما عشنا وكأننا نموت كل يوم فلن نخطأ . ومعنى
هذا هو أننا عند نهوضنا من النوم في كل يوم فلنفكر في أننا لن
نعيش حتى المساء ، وعند انطلاقنا الى النوم فلنفكر في أننا
لن ننهض ، لأن حياتنا مجهولة بطبيعتها . فالعناية الإلهية
هي التي توزّعها علينا . إذا سيطرت هذه المشاعر علينا
وعشنا على هذا المنوال لن نخطأ ولن تعترينا رغبة شريرة ،
ولن نغضب على أحد ، ولن نكنز كنوزاً على الأرض .
فلنكن عادمي القنية ولنسامح الجميع بكل ما أساؤوا إلينا ،
وكأننا نموت كل يوم . لا نُبقينّ في داخلنا شهوة امرأة أو أية
لذة شريرة ، ولنبتعد عنها ، لأنها عابرة ولنجاهد ناظرين
دائماً إلى يوم الدينونة ، لأن الخوف العظيم والصراع ضد
التجارب يدمّران سهولة اللذة ، وينهضان النفس
الساقطة .

٢٠ ـ بما أننا ابتدأنا بالسير ووطئنا الآن طريق الفضيلة ، فلنجاهد أكثر لنتقدم الى الأمام ، فلا يُرجع أحد منّا رأسه إلى الخلف كإمرأة لوط ، إذ أن الرب قال : « ما من أحد يضع يده على المحراث ويلتفت إلى الوراء ، يصلح لملكوت الله » (لوقا ٩ : ٦٢) . فإن إرجاع الرأس الى الخلف ما هو إلا تغيير في الرأي وتفكير دنيوي . لا تخافوا عندما تسمعون عن الفضيلة ، ولا يدهشكم اسمها ، لأنها ليست بعيدة منّا وليست خارج أنفسنا بل فينا . انها أمر سهل يكفي أن نريده . ان الهلينيين يسافرون ويعبرون البحر لتحصيل العلم ، لكننا نحن لا نحتاج الى السفر من أجل ملكوت السماوات ، ولا إلى عبور البحر من أجل الفضيلة ، لأن الرب سبق فقال : « ان ملكوت السماوات هو فيكم » (لوقا ١٧ : ٢١)

إذن ، ان الفضيلة تحتاج إلى إرادتنا فقط ، لأنها فينا ولأنها تثبت من خلالنا . وهي تُكتَسب عندما يتوق الجزء الروحي من النفس بالطبيعة إليها . هذا التوق يتم عندما تبقى النفس كما خلقت جميلة ومستقيمة . لذلك قال يشوع بن نون الى الشعب في وصيته إليهم : «اجعلوا قلوبكم مستقيمة في طريق الرب إله اسرائيل » (يشوع ٢٤ : ٢٣) . ويوحنا قال : « اجعلوا سبله مستقيمة » (متى ٣ : ٣). ان روحانية

النفس هي من طبيعتهـا ، أي أن تكون مستقيمـة كما خُلقت ، أما انحرافها فيعود إلى الفسـاد الحاصـل في طبيعتها ، وهذا ما يسمّى بشرّ النفس . ليس الأمر عسيراً ، لأننا إذا بقينا كما خلقنا الرب فسنكون في الفضيلة ، أما إذا فكرنا في الشر ، فسندان كأشرار . ان اكتساب الفضيلة سيكون صعباً عندما نُضطر للبحث عنها خارج أنفسنا . أما إذا كانت فينا فلنحفظ أنفسنا من الأفكار الدنسة ، ولنضعها عند الرب وكأننا تسلمناها وديعة منه ، حتى يعرف هو خلقه وحتى تكون كما خلقها .

٢١ ـ فلنجاهد كي لا يطغى علينا الغضب ولا تتسلط علينا الشهوة ،لأنه كُتب: « ان غضب الإنسان لا يصنع بر الله » (يعقوب ١ : ٢٠) . « الشهـوة إذا حبلـت ولـدت الخطيئة ، والخطيئة إذا نضجت ولـدت الموت » (يعقـوب ١ : ١٥) . فلنكن صاحين في سيرتنا ، حتى نحفظ أنفسنا بكل حرص (أنظر أمثال ٤ : ٢٣) ، لأن أعداءنا مرعبون وخدّاعون ، انهم الشياطين الأشرار ، وصراعنا هو ضدهم كما قال الرسول: «فنحن لا نحارب أعداء من لحم ودم، بل أصحاب الرئاسة والسلطان والسيادة على هذا العالم ، عالم الظلام : نحن نحارب الأرواح الشريرة في الجو» (أفسس

٦ : ١٢) . جمهرتهم كثيرة في الجو الذي يحيط بنا ، وهي ليست بعيدة عنا ، وأنواعهم متعددة أيضاً . فالكلام كثير على طبيعتهم وأنواعهم ، لكنه عمل من هم أرفع منّا ، أمّا الشيء الضروري والملحُّ تعلمه فهو ان خداعهم موجّه ضدنا .

٢٢ ـ ينبغي أن نعرف أولا أن الشياطين لم يُخلقوا شياطين ، لأنهم يحملون هذا الإسم ، فالله لم يخلق أيّ شر . خلقهم الله صالحين ، لكنهم سقطوا وابتعدوا عن الحكمة الالهية ، فأخذوا يدبّون على الأرض . ثم خدعوا الهلينيين بالخيالات ، والآن هم يحاولون خداعنا ، إذ يحسدون المسيحيين . انهم يريدون أن يعيقونا عن الإرتفاع الى السماوات ، لكي لا نرتفع إلى المكان الذي سقطوا منه . وهكذا نحتاج إلى الصلاة الكثيرة والنسك ، لكي نحصل من الروح القدس على موهبة تمييز الأرواح ، وعلى معرفة خصائصها : أي روح أقل شراً وأي روح أكثر شراً ؟ ما هو سعي كل واحد منها ؟ وكيف يُطْرد ويهْزم ؟ فحبائلهم ووسائل هجومهم متعددة . ان الرسول المطوَّب وتلاميذه عرفوا حبائل الشيطان : «نحن لا نجهل أفكاره » (٢ كور ٢ : ١١) . يجب على كل واحد منّا أن يصلح الآخر وفقاً

لخبرته مع الشياطين . وأنا بما أنني أملك بعض الخبرة معهم فسأحدثكم عنها يا أولادي.

٢٣ ـ إذا ما رأى الشيطان ان المسيحيين عامة والرهبان خاصة يتقدمون روحياً ويحبون الجهاد يسعى إلى تجربتهم ناصباً لهم عثاراً في الطريق ، أي أفكاراً شريرة . فلا تخافوا من هجماتهم ، لأنهم يهزمون حالا بالصلوات والأصوام والإيمان بالرب . لكنهم لا يتوقفون عن الهجوم ، بل يقتربون بغش وخبث . فعندما لا يستطيعون خداع القلب بشهوة دنسة وظاهرة ينقضّون بطريقة أخرى ، فيثيرون التخيلات لإخافته ، آخذين شكل النساء والوحوش والزحافات والأجساد الضخمة والجيوش الكثيرة . لا نرتعب من هذه التخيلات ، لأنها ليست بشيء وتختفي بسرعة ، عندما يحمي المرء نفسه بالإيمان وبإشارة الصليب . انهم وقحون جداً و ذوو صفاقة ، لأنهم يهجمون بأسلوب آخر إذا هزموا ، فيدّعون أنهم يتنبأون عما سيحدث بعد أيام ، مظهرين أنفسهم مديدي القامة أي حتى السقف وذوي ضخامة في العرض لكي يخدعوا بالتخيلات أولئك الذين لم ينخدعوا بالأفكار . أما إذا وجدوا النفس مشددة بالإيمان وبرجاء الفكر ، فإنهم يطلبون مساعدة رئيسهم .

٢٤ ـ ثم قال أنطونيوس : إن الشياطين تظهر غالباً على هذا النحو ، كما كشف الرب لأيوب بقوله : « عيناه كهدب الصباح ، من فمه تخرج مصابيح مشتعلة . وشرار نار يتطاير منه . من منخريه يخرج دخاناً من قدر منفوخ أو من مرجل . نَفَسُه يشعل الجمر ، واللهيب يخرج من فمه » (أيوب ٤ : ١٨ ـ ٢١) . هكذا يظهر رئيس الشياطين ، كما قلت سابقاً ، مرعباً ومتكلماً بفخر واعتزاز ، كما أدانه الرب حين قال لأيوب « يحسب الحديد كالتبن ، والنحاس كالعود النخر » (أيوب ٤١ : ٢٧) . « يحسب البحر كأنه حمام ماء ، وقعر الهاوية كأنه أسير له ، واللجة كأنها ممر له » (أيوب ٤١ : ٢٤ ـ ٢٥) . قال على لسان النبي: « قال العدو : أتبعهم فألحقهم » (خروج ١٥ : ٩) وقال على لسان نبي آخر: « سأقبض بيدي على المسكونة كلها ، مثلما أقبض على العش ، وسأرفعها كما يرفع المرء البيض المهجور » (أشعياء ١٠ : ١٤) . هذه الأمور يحاولون أن يفخروا بها ، ويعدون بها الذين يتّقون الله ليخدعوهم . لذلك يجب علينا نحن المؤمنين ألاّ نخاف من ظهوراته ، وألاّ نأبه لكلماته ، لأنه كاذب ولا يتكلم بالصدق أبداً . إذ على الرغم من كثرة هذا الإفتخار في الكلام والوقاحة ، فإن المخلص قبض عليه بصنارة كتنّين كبير ، وكدابة وضع

الرسن في فكيها ، وكهارب أوثق منخره بخطام وثقب شفتيه ببُرَّة ، فأوثقه الرب كعصفور حتى نسخر منه . ومعه الحيات والعقارب (أنظر لوقا ١٠ : ١٩) كي ندوسها نحن ، والبرهان على هذا هو أننا نعيش ضده . فالذي يزعم انه سيجفّف البحر وسيصبح سيد المسكونة لا يستطيع أن يعيق نسكنا ولا يستطيع أن يعيقني أنا الذي أتكلم ضده الآن . فلنعرض عن أقواله ، لأنه يكذب ، ولنتشجع أمام تخيلاته ، لأنها تكذب أيضاً . وما الضوء الذي يظهر عن طريق التخيلات حقيقياً ، بل هو مقدمة وصورة عن نار جهنم المعدّ له ، أي أنهم يخيفون الناس بما سيعذبون به . ان أشباحه وتخيلاته تظهر وتختفي سريعاً دون أن تسبب أذى لأي مؤمن ، فهي تعطي صورة عن النار التي ستنالها . فلا تخافوا من فنونها ، لأنها تصبح عدماً بنعمة المسيح .

٢٥ ـ الشياطين مخادعة وقادرة على أن تأخذ الشكل الذي تريده . فكثيراً ما تتظاهر وهي مختفية بأنها ترتل ، وبأنها تذكر كلمات من الكتاب المقدس . وأحياناً تردد ما نقرأه وكأنها صدى . وتارة تنهضنا للصلاة ، كي لا ننام ، بل إنها تفعل هذا باستمرار بحيث لا تسمح لنا بالنوم . وطوراً تتخذ شكل الرهبان متظاهرة انها تتكلم بتقوى لكي تخدعنا بهذا الشكل ، فتجرّ الذين خدعتهم الى حيث تريد . لذلك

يجب ألاّ نصغي إليها حينما تنهضنا للصلاة وحينما تنصحنا ألاّ نأكل أبداً وحينما تتظاهر بأنها تتهمنا وتوبخنا في أمور وافقتنا فيها سابقاً . فهي لا تفعل هذا عن تقوى أو عن حقّ ، بل لتقود المستقيمين إلى اليأس ، ولتظهر لهم أن الحياة النسكية غير مفيدة ، فتثير فيهم الإشمئزاز وتجعلهم يظنون بأن الحياة الرهبانية حمل ثقيل ، وبهذا تعيق الذين يعيشونها رغماً عنهم .

٢٦ ـ ان النبي الذي أرسله الله ينظر الى تعسهم قائلا : « ويل لمن يسقي قريبه بغية خداعه بعد أن يسكر » (حبقوق ٢ : ١٥) . هذه الحبائل والأفكار الشريرة تبعد الناس عن طريق الفضيلة . مع أن الشياطين قالت الحقيقة للرب ـ « انك أنت هو ابن الله » (لوقا ٤ : ٤١) ـ فهو أغلق أفواهها وأعاقها عن الكلام خوفاً من أن تزرع الشر مع الحق ، ومن أن نألفها ونصغي إليها ، حتى لو نطقت بالحق . فمن غير اللائق ان نتعلم من الشيطان الذي لم يحافظ على مركزه ، والذي اعتقد بأمور بدل أمور أخرى ونحن نملك الكتاب المقدس والحرية التي تنبع من المخلص . وحتى عندما يستخدم كلمات الكتاب يمنعه الرب : « قال الله للخاطىء : لماذا تتحدث عن حقي ويتلفظ لسانك بعهدي ؟ » (مزمور ٤٩ : ١٦) . ان الشياطين

تستخدم كل الوسائل لخداعنا ، فتتكلم وتثير ضجيجاً وتتنكر وتضطرب لخداع المستقيمين وتخلق ضربات وتضحك بجنون وتصفّر ، وإذا لم يصغ المرء إليها فإنها تبكي وتنوح كمهزومة .

٢٧ ـ ان الرب كإله أكمّ أفواه الشياطين . وبما أننا تلقّنا درساً من القديسين فيجب ان نقتدي بشجاعتهم ، لأنهم عندما رأوا هذه الأمور قالوا : « حينما وقف الخاطىء قبالتي أغلقت أذني ، أذللت نفسي ، ولزمت الصمت عن الخير » (مزمور ٣٨ : ٢ ـ ٣) . وكذلك « كنت كأصم لا يسمع وكأخرس لا يفتح فمه وصرت كإنسان لا سمع له » (مزمور ٣٧ : ١٤ ـ ١٥) . لذلك يجب ألاّ نصغي إليها لأنها غريبة عنّا ، وألاّ نطيعها حتى عندما توقظنا للصلاة أو تتكلم على الصوم . ولننتبه الى الغيرة النسكية دون أن ننخدع بما تفعله بغش ، حتى لو ظهرت أنها تنقضّ علينا أو تهددنا بالموت . فهي ضعيفة ولا تقوى على شيء سوى التهديد .

٢٨ ـ كلّمتكم حتى الآن على الشيطان بإيجاز ، ولا أجد صعوبة في أن أتكلم عليه الآن بتوسّع ، لأن تكرار الكلام هو من أجل امانكم الروحي . بسكنى الرب بيننا سقط العدو و ضعفت شياطينه، وأصبح عاجزاً عن تحقيق أي

شيء . لكن بما أنه طاغية وساقط فهو لا يهدأ ، بل يهدد حتى لو كان تهديده بالأقوال فقط . فليصغ كل منّا هذه الأمور في فكره ، فإنه يقوى على احتقار الشياطين . لو كانوا ذوي أجساد مثلنا ، لكانوا قادرين على الزعم بأننا لا نجد الناس عندما يختبئون ، لكن عندما نجدهم نؤذيهم . ونحن أيضاً ننجو منهم عندما نختبىء ، كما أننا نستطيع ان نغلق الباب دونهم . وإذا لم يكونوا كذلك فإنهم يستطيعون أن يدخلوا والأبواب مغلقة ، وان يكونوا حاضرين في الفضاء كله ، وعلى رأسهم إبليس . الشياطين تبتغي الشرّ وتستعد دائماً لإيذاء الناس ، كما قال الرب أن الشيطان أب الشر وقتّال الناس . وطالما اننا نحيا ، وبالأولى اننا نحيا ضدها ، يتضح أنها لا تقوى على شيء ، إذ أن الأمكنة لا تعرقل مؤامراتها . هي لا تنظر إلينا كأصدقاء ، فتشفق علينا ، ولا تحب الخير كي نفعله ، بل هي شريرة وتسعى إلى إيذاء الذين يحبون الفضيلة ويتقون الله . وبما أنها لا تقدر على شيء تلجأ إلى التهديد ، إذ لو كانت ذات قوة لما ترددت في ارتكاب الشر حالا . فهذه هي رغبتها وعلى الأخص ضدنا . نحن الآن اجتمعنا في هذا المكان لنتكلم ضدها ، وهي على يقين بأننا بالقدر الذي نتقدم فيه روحياً تضعف هي . فلو كانت تملك القوة لما تركت مسيحياً واحداً منّا على

قيد الحياة . « ان اتقاء الله مقت للخاطىء » (حكمة سيراخ ١ : ٢٥) . انها تلجأ إلى تجريح نفسها ، لأنها لا تحقق شيئاً من الأمور التي تهدد بها . ولذلك يجب ان نتذكر عدم مخافتها . فلو كانت تملك قوة لما أتت بجمهرة ولما خلقت تخيّلات ولما غيّرت أشكالها ، ولما استخدمت الخيالات . إذ يكفي ان يأتي واحد منها ويفعل ما يريده . بل إن كل ذي سلطان لا يلجأ إلى القتل بالخيال ولا يثير الرعب بالضجيج ، بل يستخدم قوته بسرعة كما يشاء . لكن بما أن الشياطين لا قدرة لها ، فهي تمثل على المسرح مغيّرة شكلها ومرعبة الأطفال بأشباحها وأشكالها ، فيكون ضعفها سبباً لاحتقارها . ان الملاك الحقيقي الذي أرسله الرب ضد الأشوريين لم يكن بحاجة إلى الجماهير ولا إلى ضجيج ولا إلى خيالات كاذبة ولا إلى ضربات ، بل استخدم سلطانه بهدوء وبدون خوف وقتل دفعة واحدة مئة ألف وخمسمئة وثمانين ألف رجل . أما الشياطين التي لا قوة لها فترعب الناس لو بالخيالات .

٢٩ ـ إذا فكر الإنسان في آلام أيوب وتساءل : لماذا حرّك الشيطان كل الأمور وجرّده من ممتلكاته وقتل أولاده وضربه بقرح رديء (أيوب ١ : ١٥ ـ ٢٢ ، ٢ : ١ ـ ٧) ؟

فليعــرف بأن الشيطــان ما كان يملك أية قوة لفعــل هذه الأمور ، لو لم يسمح له الله من أجل امتحانه . وحيث أنه لا يقدر على أي شيء ، طلب السماح من اللـه ، وعندما حصل على ذلك فعل ما شاء . من هنا كان العدو مستوجباً الدينونة ، لأنه لا يستطيع أن ينزل الشر بإنسان صدّيق حتى لو أراد ذلك . فلو كان قادراً لما طلب من الله . وبما أنه لم يطلب مرة واحدة بل مرتين ظهر انه ضعيف وغير قادر على شيء . وما فشله ضد أيوب غريباً ، لأنه لو لم يسمح له الله لما استطاع القضاء حتى على حيوانـات أيوب . إذ لم يقـو حتى على الخنازير ، كما كُتب في الإنجيل حينما قال للرب: « فأذن لنا ان نذهب الى قطيع الخنازير » (متى ٨ : ٣١) . إذا كان الشيطـان لا يملك السلطــة على الخنــازير ، فكم بالحري على الذين هم مخلوقون على « صورة الله » .

٣٠ ـ يجب، إذن، أن نخـاف الله وحــده و ان نحتقر الشياطين بلا خوف . بل كلما أكثرت من فعل هذه الأمور ، يجب ان نكثّف نسكنا ضدهـا ، لأن السـلاح الكبـير ضد الشياطين هو حياة مستقيمة وإيمان بالله . فهي تخاف صوم النسّاك وسهرهم وصلواتهـم و وداعتهـم وسكينتهـم وعـدم محبتهم للفضة وكرههم للمجد الباطل، و اتضاعهم ومحبتهم

للفقراء وإحساناتهم وعدم غضبهم ، وقبل كل شيء إيمانهم بالمسيح . النسّاك يفعلون هذه الأمور ، لكي لا تخدعهم الشياطين ، ولأنهم يعرفون النعمة التي وهبها المخلص للمؤمنين ضدهم . « ها أنا أعطيكم سلطاناً تدوسون به الحيّات والعقارب وكل قوة للعدو» (لوقا ١٠ : ١٩).

٣١ ـ إذا ما تظاهرت بالنبوءة ، لا تبالوا بها . فهي تعلن قبل أيام عن الإخوة الذين سنلتقي بهم بعد تلك الأيام ، فيأتي أولئك فعلا . وهي لا تفعل هذا لعدم مبالاتها بالسامعين ، بل لكي تقنعهم فيثقوا بها أكثر . لكن بعد أن يصبحوا ملك أيديها تنقضّ عليهم . لذلك يجب ألاّ ننصت إليها عندما تتنبأ بل يجب ان نفحمها ، لأننا لا نحتاج إليها . فما هو العجب ، ان كانت ذوات أجساد أكثر خفة من أجساد الناس ، فتراهم حينما يبدأون السير ، وتسبقهم في الطريق معلنة قدومهم ؟ هذا ما يقدر أن يتنبأ به أي فارس ، لأنه يسبق الذي يسير على قدميه . فلا نعجب من هذه المقدرة ، لأنها لا تعرف الأمور التي لم تحدث . الله وحده هو الذي يعرف كل شيء قبل حدوثه . هي تركض كسارقة لتعلن ما تراه . فإلى كم من الناس تعلن الآن ما يختص بنا ، نحن الذين اجتمعنا ضدها ، فقبل أن يترك الواحد منّا

المكان تسرع لتخبر عنه . هذا ما يستطيع ان يقوم به ولد يقوى على الركض بسرعة ، لأنه يسبق الذي يسير ببطء . أعني انه إذا ابتدأ بالسير من طيبة ، أو من أي مكان آخر ، فإنها لا تقدر ان تعرف قبل انطلاقه ما إذا كان سيسير . انها تركض لتعلن عن قدومه قبل وصوله . وهكذا يأتي الرجل بعد أيام . كثيراً ما يعود السائر قبل أن يصل فتكذب الشياطين .

٣٢ ـ أحياناً تثرثر بالطريقة ذاتها حول مياه الأنهار ، أي أنها ترى الأمطار وهي تهطل في مناطق الحبشة ، فتدرك ان المياه ستسبب فيضاناً في النيل . لذلك تركض لتخبر عن الفيضان قبل وصول المياه الى مصر . لو كان الناس يستطيعون العدو مثلها ، لأخبروا عن الأمر. ان حارس (أو مخبر) داود صعد إلى مكان عال فرأى رجلا وهو يقترب أفضل مما رآه الذي كان في الأسفل . لذلك سبق الآخرين وأخبر داود . هذا يعني انه لم يخبر بالأمور التي لم تحدث ، بل بالأمور التي كانت تجري في الطريق وتحدث فيها (صموئيل الثاني ١٨ : ٢٤) . هذه تفضل أن تتعب نفسها وتخبر الآخرين بما يحدث ، حتى تخدعهم . لكن إذا فكرت العناية الإلهية في شيء يتعلق بالماء أو بالمسافرين

ـ وهي تملك القدرة على ذلك ـ تظهر الشياطين كاذبة وتظهر الذين آمنوا بها أنهم مخدوعون .

٣٣ ـ هكذا تأسس سحر الهلينيين ، وهكذا خدعتهم الشياطين . لكن هكذا توقف الضلال أيضاً ، لأن الربّ أتى وأبطل الشياطين مع حبائلها . هي لا تعرف شيئاً من ذاتها ، بل تنقل كاللصوص ما تراه عند الآخرين . وهي تقوى على التخمين لكنها لا تقوى على المعرفة السابقة . لذلك ينبغي ألاّ نعجب بها ، حتى لو تكلمت بالصدق أحياناً . فالأطباء ذوو الخبرة ، عندما يجدون المرض نفسه عند الآخرين يتأملون فيه ويخبرون مسبقاً عنه . هذا ما يفعله أيضاً قوّاد السفن والفلاّحون ، الذين ينظرون إلى حالة الطقس ، فينبئون من خلال خبرتهم ، إذا كان الهواء سيكون عاصفاً أو لطيفاً . فلا يزعم أحد بأن الشياطين تتنبأ بوحي إلهي ، إذ تنطق من خلال خبرتها وتمرّسها . فإذا تنبأت عن بعض الأمور من خلال تخميناتها ، فلا يتعجبنّ أحد منها ولا يصغينّ إليها . فماذا ينتفع الذين يصغون إلى الشياطين ، إذا ما عرفوا المستقبل قبل أيام ؟ لماذا يهتمون بمعرفة المستقبل منها ، حتى لو كانت هذه المعرفة صحيحة ؟ فالمعرفة لن تصنع الفضيلة ولن تكون علامة للخُلق الصالح . فلن يدان أحد منّا ، لأنه يجهل المستقبل ، ولن

يطوّب إذا ما عرفه ، إذ أن المرء سيُحاكم على صونه للإيمان وحفظه للوصايا .

٣٤ ـ فلنعرض عن إعطاء الشياطين أية قيمة ، كذلك يجب ألاّ نتعب في حياة النسك للحصول على نعمة معرفة المستقبل ، بل لإرضاء الله بسيرتنا ، وألاّ نصلّي للحصول على موهبة العلم بالمستقبل ، وألاّ نطلب هذا كأجرة لنسكنا ، بل ليكن الرب متدائباً معنا في انتصارنا على الشيطان . أما إذا اهتمّ أحدنا بمعرفة المستقبل فليطهّر فكره ، لأنني أؤمن بأن النفس المتطهّرة من الأفكار الشريرة والمحافظة على الطبيعة التي خلقها الرب فيها ، تقدر أن تكون رائية أكثر ، وأن تنظر إلى أبعد مما يراه الشيطان . فهي تملك الرب الذي سيعلن لها كل شيء . ان نفس النبي أليشع رأت كل ما سيفعله جيزي وكل القوات الموجودة في الجبل .

٣٥ ـ إذا ما أتتكم الشياطين ليلا وأرادت التحدث عن المستقبل أو قالت : نحن ملائكة، فلا تنصتوا إليها ، لأنها كاذبة . وإذا ما مدحت نسككم وطوّبتكم فلا تقتنعوا بما تقوله لكم ولا تنصتوا إليها . بل اختموا أنفسكم وبيوتكم بإشارة الصليب وصلّوا ، ثمّ انظروا إليها فتجدوها انها تختفي . فهي تخاف من إشارة الصليب لأن المخلص عرّاها

من كل قوة مشهّراً إياها . لكن إذا ما أصرّت على إزعاجكم بوقاحة أشد ، آخذة بالرقص وتغيير الشكل ، فلا تخافوا ولا تصغوا إليها كصالحة . إذ من السهل تمييز مظاهر الأرواح الشريرة عن الأرواح الصالحة ، لأن الرب يعطينا قوة هذا التمييز . ما ظهور الأرواح الصالحة مرعباً ، لأنها لا تجد في ظهورها من تتصارع معه ومن يصرخ ويسمع صوتها (أشعياء ٤٢ : ٢) . ظهور هذه الأرواح هادىء وصامت ، ويخلق فرحاً في النفس وشجاعة . فالرب معها وهو فرحنا وهو قوة الله الآب . أما الأفكار التي تخلقها هذه الظهورات فتبقي النفس غير متزعزعة إلى أن تنيرها من هذا الفرح ، فتعرف ما هي الأرواح التي تظهر لها ، إذ أن الشوق الإلهي وشوق الخيرات الآتية تتملكان النفس ، فتبتغي أن تنضم إليها وأن ترحل معها . إذا كان هناك من يخاف ظهور الأرواح الشريرة ، فهذه الأرواح (الصالحة) تطرح عنهم الخوف جانباً بالمحبة التي تظهرها ، كما فعل غفرئيل مع زخريا (لوقا ١ : ١٣) ، وكما فعل الملاك الذي ظهر للنسوة عند قبر الرب (متى ٢٨ : ٥) . وعندما ظهر للرعاة قال لهم : «لا تخافوا» (لوقا ٢ : ١٠) . ان خوف أولئك لم يكن نتيجة الجبن ، بل نتيجة اليقين بظهور الملائكة الصالحين ، هذا هو ظهور الملائكة القديسين .

٢٦ ـ أمّا هجوم الأرواح الشريرة وظهورها الخيالي فيرافقه جلبة وضربات وأصوات وصراخ ، كهجوم الأولاد الأشرار واللصوص . فحين ظهورها يسيطر الرعب واضطراب النفس وتشويش الفكر والتهجم وكره النّساك والتهامل والحزن وتذكر الأقرباء وخوف الموت . وفوق ذلك رغبة في الشر وكسل في اكتساب الفضيلة واضطراب في الخلق . إذا رأيتم روحاً واعتراكم الخوف أولا ثم حلّ محله فرح لا يعبّر عنه وحماس وشجاعة و إقدام ومحبة لله ، فتشجعوا وصلّوا للرب. هذا الفرح و استقرار النفس يظهران قداسة الملاك الحاضر. وهكذا أحسّ ابراهيم بالفرح الروحي عندما رأى السيد و ارتكض يوحنا السابق من الفرح عندما تكلمت والدة الإله مريم (لوقا ١ : ٤١). لكن إذا ما رأينا أرواحاً وأثارت اضطراباً وضربات خارجية وتخيلات دنيوية وتهديداً بالموت وكل ما ذكرناه سابقاً، فلنعرف بأن هذا هجوم أرواح شريرة.

٣٧ ـ وهذه أيضاً علامة لكم : اعلموا بأن الرعب الذي يثار في النفس هو دليل على وجود الأعداء ، لأن الشياطين لا تطرح خوف الظهورات جانباً ، كما فعل الملاك غفرئيل مع مريم وزخريا والذي ظهر للنسوة عند القبر ، بل إنها تزيد

من ظهوراتها عندما ترى الذين يرتعبون خوفاً ، لكي تكثر من خوفهم . وعندما تخضعهم تهزأ منهم قائلة : انحنوا و اسجدوا. هكذا خدعت الوثنيين لتجعلهم يؤمنون بآلهة كاذبة ، غير أن الرب لم يسمح للشيطان بأن يخدعنا ، إذ وبّخه عندما ظهرت له الرؤية في البرية فقال له : « ابتعد عنّي يا شيطان ، لأن الكتاب يقول : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » (متى ٤ : ١٠) . لذا يجب أن نحتقر دوماً المضل أكثر فأكثر ، لأن الرب قال هذا الكلام من أجلنا . عندما ستسمع الشياطين من فمنا الكلمات ذاتها ، ستُهزم بقوة، هاربة من وجه الرب الذي وبّخها على هذا النحو.

٣٨ ـ لا نفتخر بأننا نطرد الشياطين ولا نتبجح بأننا نشفي المرضى ، ولا نعجب ممن يملك سلطان طرد الشياطين ولا نحتقر من لا يملك هذا السلطان . لكن ليعرف كل منّا نسك الآخر كي يقتدي به وينافسه أو لكي يصلحه . ففعل العجائب ليس منا ، بل من المخلص . لذلك قال الرب لتلاميذه: «لكن لا تفرحوا بأن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بأن أسماءكم مكتوبة في السماوات » (لوقا ١٠ : ٢٠) . فكتابة أسمائنا في السماوات إشارة إلى فضيلة حياتنا ، بيد أن طرد الشياطين موهبة معطاة من الرب .

لذلك يقول للذين لا يفتخرون بفضيلتهم ، بل بالآيات التي يفعلونها: «يا رب أما باسمك نطقنا بالنبوءات؟ وباسمك طردنا الشياطين ؟ وباسمك عملنا العجائب الكثيرة ؟ فأقول لهم: ما عرفتكم مرة » (متى ٧ : ٢٢ - ٢٣) ، لأنه لا يعرف طريق الضالين . وكما قلت آنفاً ، ينبغي أن نصلّي على الدوام كي نكتسب موهبة تمييز الأرواح ، كي - كما كتب - « لا نصدق كلّ روح » (١ يوحنا ٤ : ١) .

٣٩ - كنت أودّ أن أصمت وألاّ أورد شيئاً عن حياتي مكتفياً بما قلت ، لكن لكي لا تظنوا بأن ما قلته سرد عادي ، بل من خبرتي الحياتية ومن حقائق ثابتة ، فسأكمل الكلام حتى لو بدوت أحمق . وأقول كم من حبائله شاهدت بأمّ عيني . فالرب الناظر إلى ضميري النقي يعرف أنني لا أقول هذه من أجل نفسي ، بل من أجل محبتكم ونصحكم . كم مرةٍ طوّبتني الشياطين ، لكنني باسم الرب أبدتها ! كم مرةٍ تنبأت عن فيضان النيل ، لكنني كنت أقول لها لِمَ هذا الإهتمام بالأمر ! أتت مرة مهدّدة فأحاطت بي كالجنود المدججين بالسلاح . ومرة ملأت البيت بالأحصنة والوحوش والزحافات ، أما أنا فكنت أرتل: «هؤلاء

بالمركبات وهؤلاء بالخيول ، أما نحن فباسم الرب إلهنا نتعظّم » (مزمور ١٩ : ٨) . بهذه الصلوات أبعد الرب الشياطين عنّي . وأتت مرة في الظلام حاملة نوراً خيالياً وقالت : أتينا لننيرك يا أنطونيوس . فأغلقت عينيّ وصلّيت فانطفأ نور الأشرار للحين . بعد أشهر أتت ترتل وتتفوّه بآيات كتابية، «لكنني كنت كأصمّ لا يسمع» (مزمور ٣٧ : ١٤). مرة أخرى هزّت الدير كله، أمّا أنا فكنت أصلّي محافظاً على عقلي من التزعزع . بعد ذلك أتت تصفّق وتصفّر وترقص . لكن عندما بدأت أصلّي ، وعندما اضطجعت وأنا أرتل في داخلي ، ابتدأت تنوح وتبكي ، وكأنها فقدت قوتها . وأنا مجّدت الرب الذي أخفق قوتها ، وأظهر وقاحتها وجنونها .

٤٠ ـ ظهر مرة شيطان طويل القامة جداً بعظمة وتجرأ على القول : أنا هو قوة الله ، أنا هو العناية الإلهية . ماذا تريد أن أعطيك ؟ أما أنا فذكرت اسم المسيح وبصقت عليه محاولا لطمه، و اعتقد بأنني لطمته. وحالما سمع الطويل القامة اسم المسيح اختفى مع كل من معه. وكنت مرة أخرى صائماً فأتى إليّ ذلك المخادع كراهب يحمل في يديه خبزاً خيالياً ونصحني قائلاً: كُلْ وكفّ عن العذابات

الكثيرة ، أنت إنسان وسوف تمرض . لكنني أدركت حيلته ، ولذلك نهضت للصلاة . لكنه لم يحتمل فاختفى للحين وبدا كأنه يخرج من الباب كالدخان . كم مرةٍ أظهر لي في الصحراء ذهباً خيالياً حتى ألمسه وانظر إليه . لكنني كنت أرتل من كل القلب وذلك كان يذوب من شره . كم مرةٍ جرّحني وأنا كنت أردد « لن يفصلني شيء عن محبة المسيح » (رومية ٨ : ٣٥) . فكان كل شيطان يجرّح الآخر . لم أكن أنا الذي أوقفته وأبطلت عمله ، بل الرب القائل : « رأيت الشيطان يسقط من السماء مثل البرق » (لوقا ١٠ : ١٨) . يا أولادي ، انني أتذكر دائماً قول الرسول « جعلست من نفسي مثالا » (١ كور ٤ : ٦) ، كي لا تتهاونوا في نسككم ، وكي لا تخافوا من تخيلات الشيطان وجيشه .

٤١ ـ صرت أحمق وأنا أقص عليكم هذه الأمور . لكن تقبّلوها من أجل أمانكم وشجاعتكم وصدقوني فإنني لا أكذب . قرع شخص باب الدير مرة ، ولما خرجت وجدت شخصاً طويلاً وضعيفاً. عندما سألته من أنت ؟ قال أنا هو الشيطان . ولما سألته لماذا أتيت إلى هنا ؟ قال : لماذا يلومني جميع الرهبان والمسيحيون باطلا ؟ ولماذا يلعنونني كل الوقت ؟ عند ذلك قلت له : لماذا تزعجهم ؟ قال : انا لا

أزعجهم لأنني ضعيف . وهم الذين يجعلون أنفسهم مضطربة ، ألم يقرأوا: «فنيت سيوف العدو كل الفناء . دمّرت مدنهم » (مزامير ٩ : ٦) . لا مكان لي ولا سلاح ولا مدينة . الناس اعتنقوا المسيحية في كل مكان ، والصحراء امتلأت بالرهبان . يجب أن يحافظوا على أنفسهم ،و ألاّ يلعنوني باطلا . حينذاك اندهشت من نعمة الرب وقلت له : مع أنك تتكلم دائماً بالكذب ، فإنك قلت الآن الحقيقة دون أن تريد ، لأن المسيح أتى حقاً وجعلك ضعيفاً وبانتصاره عليك عرّاك . حالما سمع اسم المخلص لم يحتمل الغليان وصار غير مرئي .

٤٢ ـ طالما أن ابليس نفسه يعترف بأنه لا يقوى على شيء، فمن الواجب ان نحتقره مع شياطينه أيما احتقار. ان حبائله مع حبائل كلابه عديدة ، لكننا نحن العارفين ضعفه نقوى على احتقاره . ولذلك ينبغي ألاّ نخسر شجاعتنا وألاّ ترتعب نفوسنا وألاّ تثار في دواخلنا مخاوف فنقول : أترى سيأتي الشيطان ويقضي علينا ؟ هل سيقبض عليّ ويرميني إلى الأسفل ؟ أم أنه سيظهر فجأة ويختفي ؟ لا ندعنّ أفكاراً كهذه تدور في ذهننا ولا نحزن وكأننا هالكون . بل لنكن ذوي شجاعة وفرح وكأننا مُخَلَّصون . ولنفكر في أن الرب

الذي أضعفهم وضيّق عليهم الخناق هو معنا دائماً . لنتذكر ولنضع في فكرنا أن أعداءنا لن يفعلوا شيئاً ، ما دام الرب معنا . عندما تأتي الشياطين إلينا تعاملنا حسب حالتنا النفسية مكيّفة التخيلات التي تثيرها وفق أفكارنا . فحينما تجدنا خائفين ومضطربين تهجم مثل اللصوص الذين يجدون المكان بلا حراسة ، وتفعل بمغالاة ما تجدنا مفكرين فيه . وإذا ما وجدتنا خائفين وجبناء ، فإنها تكثر من التخيلات والتهديدات كي تعذّب النفس الشقية . أما إذا وجدتنا فرحين مع الرب ومفكّرين في الصالحات الآتية وواضعين في فكرنا كل ما يفرح الرب ومؤمنين بأنها لا تملك قوة على المسيحيين فإنها تبتعد خازية . هكذا عندما رأى العدو أيوب محُصّناً جداً هرب من أمامه (أيوب الفصل الأول والثاني) ، لكنه وجد يهوذا عارياً من هذه الأفكار فأسره (يوحنا ٢٣ : ٢٧) . كيما نزدري بالعدو يجب أن نتذكر دائماً الإلهيات وأن تكون نفسنا فرحة ، فنرى فخاخ العدو تعلو كالدخان . ان الشياطين تهرب بدل أن تطاردنا فهي جبانة وتنتظر دائماً النار المعدة لها .

٤٣ ـ لتكن هذه العلامة عندكم كي تتشجعوا . فكلما ظهر للواحد منّا خيال لا يخافنّ ، بل ليسل من أنت ؟ ومن

أين أتيت ؟ إذا كانت هذه الرؤية رؤية قديسين ، فإن أولئك سيحوّلون خوفكم ، عندما يكون الفكر قوياً وسائلا من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ هكذا سأل يشوع بن نون وعرف الرؤية (يشوع ٥ : ١١) ، والعدو لم يغفل عن دانيال عندما سأله هذا (دانيال ١٠ : ١١ - ١٨ : ١٩).

الصحراء مدينة المحبة

٤٤ - سرّ الجميع بكلام أنطونيوس . فازداد حبّ الفضيلة عند البعض وانتفى التهامل عند البعض الآخر وزال الكبرياء عند آخرين . فتعجب الجميع من النعمة التي وهبها الرب إلى أنطونيوس في تمييز الأرواح ، و اقتنعوا بازدراء الهجمات الشيطانية . وتحوّلت الأديار في الجبال إلى مساكن مملوءة بالأجواق الإلهية التي ترتل وتحب كلمة الرب وتصوم وتصلّي وتفرح برجاء الخيرات الآتية وتجاهد في الإحسان ، والتي سادت بينها المحبة والتآلف . ان المرء يستطيع ان يرى مكاناً يتقي الله ويحب البر في طبيعته . فما من يَظْلُم أو من يُظْلَم وما من يعيرّ جابي الضرائب . فهَناك مجموعة من النسّاك يجمعها فكر واحد هو اكتساب الفضيلة ، حتى ان من يرى الأديار والإنسجام بين النسّاك

يصرخ : « ما أجمل مساكنك يا يعقوب وخيامك يا إسرائيل كأودية عميقة وكجنّة على النهر وكخيام نصبها الرب وكالأرز قرب المياه » (عدد ٢٤ : ٥ ـ ٦) .

٤٥ ـ عاد أنطونيوس ليمارس النسك وحده في ديره ويكثّف رياضته الروحية ويتنهد يومياً ويتذكر الأمور السماوية متشوقاً إليها ومتأملا في قصر حياة الإنسان . عندما كان يزمع بالأكل أو النوم أو قضاء الحاجات الجسدية الأخرى كان الخجل يعتريه ، لأنه كان يفكر في روحانية النفس . وعندما يأكل مع الرهبان الآخرين كان يتذكر الطعام الروحي فيتنحى عن موضعه ، لأنه كان يظن بأنه سيحمرّ خجلا ، إذا ما رآه الآخرون وهو يأكل . لكن عندما كان وحيداً كان يأكل بسبب حاجة الجسد . فكثيراً ما أكل مع الإخوة وهو خجل ، لكنه كان يتعزى ، لأنه كان يتكلم كلاماً نافعاً . فكان يقول انه يجب ان نخصص وقتاً للنفس أكثر من الجسد ، وأن نسمح بوقت قصير للجسد بسبب الحاجة . ويجب ان نخصص كل الباقي للنفس و ان نطلب منفعتها ، لكي لا تنجرف بلذائذ الجسد ، بل ان يخضع الجسد للنفس . هذا ما ابتغاه الرب من قوله : « فلا تطلبوا ما تأكلون وما تشربون ولا تقلقوا ، فهذا كله يطلبه

أبناء هذا العالم ، وأبوكم السماوي يعرف انكم تحتاجون إليه . بل اطلبوا ملكوت الله ، وهو يزيدكم هذا كله » (لوقا ١٢ : ٢٩ - ٣١) .

موقفه البطولي أثناء إضطهاد مكسيمينوس

٤٦ - بعد ذلك ساد الكنيسة إضطهاد في عهد مكسيمينوس . ولما اقتيد الشهداء القديسون إلى الاسكندرية كان أنطونيوس يتبعهم ، لأنه ترك الدير قائلا : لنذهب نحن أيضاً ، كي نجاهد إذا ما دعانا الرب أو حتى نرى المجاهدين . فكان يحدو به شوق نحو الاستشهاد ، لكن بما أنه لم يشأ أن يسلم نفسه كان يخدم المعترفين بالإيمان في السجون والمناجم وكان يشدّد غيرتهم في المحكمة ، إذ جاهد من أجل تشديد حماس المدعوين إلى المحاكمة . وكان يقبِّل الشهداء ويرافقهم حتى يقضوا نحبهم . ولما رأى القاضي شجاعته وشجاعة مرافقيه وغيرتهم أمر ألاّ يظهر أحد من الرهبان أثناء المحاكمة وألاّ يبقوا في المدينة . وفي حين فكّر الرهبان الآخرون في الإختفاء في ذلك اليوم ، فإن أنطونيوس لم يبال بهذا الأمر ، بل غسل ثوبه جيداً ووقف في اليوم الثاني في مكان مرتفع أمام القائد حتى يراه بوضوح . فتعجب الجميع من شجاعته ، لأنه كان يسير مع

رفاقه دون خوف أمام القائد ، مظهراً الغيرة التي نتمتع بها نحن المسيحيين . كان يصلّي لكي يستشهد ، كما قلت سابقاً ، وكان يبدو حزيناً لأنه لم يستشهد لكنّ الرب حفظه من أجل منفعتنا ومنفعة الآخرين ، حتى يكون معلماً في النسك الذي قبله من الكتاب المقدس . وعندما رأى الكثيرون أسلوب حياته أظهروا رغبة في أن يقتدوا به . هكذا كان يتبع المعترفين بالإيمان كي يخدمهم مجداً في الأمر وكأنه أسير معهم .

عجائبه

٤٧ ـ عندما توقف الإضطهاد الذي استشهد فيه الأسقف بطرس الكلي الطوبى عاد إلى الدير ليقدم في كل يوم شهادة الضمير ، مجاهداً في سبيل مآثر الإيمان وفي سبيل ممارسة نسك أكبر وأكثف . فكان يصوم دائماً متخذاً لنفسه لباساً من الجلد مكسواً بالشعر من الداخل . و ارتدى هذا اللباس حتى موته ، فكان لا يغسل جسده بالماء لينظّفه ، ولا يغسل رجليه ، بل لا ينهض ليضعهما في الماء بدون ضرورة ملحّة . لم يشاهده أحد وهو يخلع ثيابه ، ولم يشاهد أحد عُري جسده إلاّ عندما مات ودفن .

٤٨ ـ عندما قرّر الاعتزال طويلاً في منسكه لا يستقبل

أحداً من زائريه ، أتى إليه قائد للجيش اسمه مرتينيانوس مع جمع كبير ، لأنّ ابنته كانت تعذبها الشياطين . ولما أمضى وقتاً طويلا وهو يقرع الباب بصبر، راجياً منه أن يخرج كي يصلّي إلى الله من أجل ابنته ، أطلّ عليه من فوق دون أن يفتح الباب وقال له : لماذا تناديني أيها الإنسان صارخاً؟ أنا إنسان مثلك . فإذا كنت تؤمن بالمسيح الذي أعبده ، اذهب وصلّ إليه كما تؤمن فتُستجاب طلبتك . للحين انصرف القائد مؤمناً وطالباً مساعدة يسوع ، فتطهرت ابنته من الشيطان . وهكذا فعل الله بواسطة أنطونيوس عجائب كثيرة، فهو القائل «اطلبوا تجدوا» (لوقا ١١ : ٩) . فكثير من المتألمين كانوا يشفون وهم نائمون خارج ديره مؤمنين ومصلّين بصدق .

سكناه في الصحراء الداخلية

٤٩ ـ لما رأى أنطونيوس ان الناس يزعجونه ولا يفسحون له في المجال لممارسة النسك كما يرغب ويريد ، ولما خاف من أن يفتخر بالأمور التي يفعلها الرب بواسطته أو أن يتكبّر أو أن يظنه الناس أكثر مما هو ، فكّر في الصعود الى طيبة العليا حيث لا يعرفه أحد . وأخذ من إخوته بعض كسر من الخبز وجلس على ضفة النهر ينتظر مرور سفينة حتى يستقلّها

ويبحر معهم . وفيما هو يفكر في هذا سمع صوتاً من فوق يقول له : إلى أين أنت ذاهب يا أنطونيوس ؟ ولماذا ؟ أجاب بلا اضطراب ، إذ اعتاد أن يُدعى بهذه الطريقة وقال : بما أن الناس لا يسمحون لي أن أعيش في السكينة فإنني أودّ الصعود إلى طيبة العليا . فالناس يزعجونني ويطلبون منّي أن أقوم بأعمال تفوق قوتي . فقال له الصوت: حتى لو انتقلت إلى طيبة أو نزلت إلى فوكوليا (المراعي الريفية)، كما ترغب ، فإنك ستتحمل تعباً مضاعفاً . إذا ما أردت أن تعيش في سكينة ، إذهب إلى الصحراء الداخلية . وعندما سأل أنطونيوس : من سيريني الطريق ، ما دمت لا أعرفه ؟ أرشدته جماعة عربية إلى سلوك تلك الطريق ، إذ توجّه إليها ودنا منها راجياً ان يصحبها إلى الصحراء ، فقبلت وكأنه تدخّل العناية الإلهية . فسار معها ثلاثة أيام وليال حتى وصل إلى جبل عال فيه مياه باردة وعذبة وفيه سهل يضم أشجاراً مهملة من النخل .

٥٠ ـ أحبّ أنطونيوس المكان ، لأنه كان المكان الذي قاده إليه الله . انه المكان الذي أشار إليه ذاك الذي كلّمه ، إذ كان على ضفتي النهر . عاش باديء الأمر وحده ، دون أن يكون أحد بجانبه ، بعد أن قبل بضع كسر خبز من الذين رافقوه . وأخذ يحسب المكان هذا بيتاً له . ولما رأى

العرب غيرة أنطونيوس كانوا يمرون خصيصاً من ذلك الطريق ليقدموا له الخبز بفرح . وكان يقتات كذلك ببعض ثمار النخل . بعد وقت عرف الاخوة المكان الذي يقطن فيه ، فأخذوا يرسلون له طعاماً ، كالأولاد الذين يتذكرون أباهم . لكنه أحس أن بعض الرهبان يتحملون المشقة بسبب الخبز ، فأشفق عليهم وفكّر في نفسه أن يحمل إليه بعض الذين يزورونه مِعْوَلا وفأساً وبعض القمح . ولما أحضروها طاف في الأرض التي حول الجبل ، فوجد مكاناً صغيراً ذا ماء غزير للريّ ففلحه وزرعه . كان أنطونيوس يقوم بهذا العمل كل سنة لتحصيل خبزه . وكان فرحاً بهذا العمل ، لأنه لم يزعج أحداً ولم يثقّل على أحد . ومن ثمّ زرع بعض الخضار ، لأن البعض كانوا يزورونه ، فتكون لهم راحة من عناء الطريق الشاق . أما وحوش البرية فكانت تأتي لتشرب ، لكنها كثيراً ما أتلفت البذار والزرع ، فأمسك بلطف وحشاً وقال للوحوش : لماذا تسبّبون لي الأذى وأنا لم أصنع معكم شراً ؟ ابتعدوا ، وباسم الرب لا تقتربوا من هذا المكان . ومنذ ذلك الحين لم تعد تقترب منه ، وكأنها خافت من هذا الكلام .

صراعه ضد الشياطين

٥١ ـ هكذا كان أنطونيوس في الجبل منهمكاً في الصلوات والنسك . أمّا الإخوة الذين كانوا يخدمونه فرجوه أن يأتي مرة في الشهر ، لكي يحملوا إليه زيتاً وزيتوناً وبقولا ، إذ أصبح شيخاً . وطوال الوقت الذي عاش فيه هناك لم يصارع ، كما كُتب ، لحماً ودماً ، بل الشياطين الثائرة (أفسس ٦ : ١٢) كما عرفنا من زائريه . انهم كانوا يسمعون ضجيجاً وأصواتاً عالية وضربات مثل جلبة السلاح . وكانوا يرون الجبل مليئاً بالوحوش أثناء الليل ، وكانوا يرونه وكأنه يحارب كائنات منظورة ، ويصلّي ضدها . وكان يشجع الذين يزورونه وهو يجاهد حانياً ركبتيه ومصلّياً للرب . ولهذا السبب يستحق الإعجاب ، لأنه فيما كان وحيداً في صحراء كهذه ، لم يخف من الشياطين التي تهاجمه ومن ضراوة الوحوش الكثيرة ذوات الأربع والزحافات ، بل كان يضع رجاءه ـ كما كُتب ـ على الرب ، حافظاً عقله غير متزعزع وغير مضطرب كجبل صهيون (أنظر مزمور ١٢٤ : ١) . فهربت الشياطين وسالمته الوحوش الضارية ، كما يقول الكتاب (أنظر أيوب ٥ : ٣) .

٥٢ - إلاّ أن الشيطان ظلّ ينظر إليه بغاية شريرة - كما يرنّم داود - صارفاً عليه بأسنانه (مزمور ٣٤ : ١٦) . لكنّ أنطونيوس حصل على تعزية من الرب ، فحُفظ مصاناً من حبائل العدو ومكائده . وبينما كان ساهراً ذات يوم أفلت الشيطان الوحوش ضده ، فخرجت في تلك الصحراء جميع الضباع تقريباً من مرابضها لتحيط به . وكان هو في وسطها ، ففتح كل ضبع فمه مهدداً بنهشه . أما أنطونيوس فأدرك حيلة العدو وقال للضباع : إذا كنت تملكين ، أيتها الضباع ، قوة عليّ فها أنا مستعد لأن أكون طعاماً لك . وإذا كانت الأبالسة هي التي أرسلتك إليّ فلا تتواني في الإنصراف ، لأنني أنا عبد للمسيح . ولما قال هذا الكلام ابتعدت وكأنها طردت بسوط كلامه .

٥٣ - بعد أيام وفيما هو يعمل (لأنه كان يحرص على العمل الجاد) وقف شخص في الباب وشدّ طرف الخوص ، إذ أنه كان يصنع سلالا ويعطيها لزائريه بدل ما يحملون له . فنهض ورأى وحشاً يشبه الإنسان حتى فخذيه ، والحمار في ساقيه ورجليه . أما أنطونيوس فرسم إشارة الصليب وقال : أنا عبد المسيح فإنْ أُرسلت ضدي فأنا موجود أمامك . هكذا هرب الوحش مع شياطينه بسرعة قصوى حتى أنه سقط و مات. ان موت الوحش كان هزيمة للشياطين، لأنها

سعت سعياً حثيثاً وبكل الوسائل كي تبعده عن الصحراء ، فلم تقدر .

٥٤ ـ عندما رغب الرهبان في أن ينزل لزيارتهم وزيارة أماكنهم لوقت قصير ، رافق الذين التقى بهم . فحمّلوا الجمل خبزاً وماء ، لأن الصحراء كلها كانت جافّة ، لا ماء فيها يصلح للشرب سوى في ذلك الجبل ، الذي كانوا يستقون منه والذي كان فيه الدير . في الطريق فرغ الماء ، وكان الحر شديداً حتى أمسوا في خطر شديد . فجالوا في المكان فلم يجدوا ماء . ولم يقدروا على السير ، بل سقطوا على الأرض وتركوا الجمل ، فاستولى عليهم اليأس وأحس الشيخ أن الخطر أحدق بهم ، فتنهد بحزن و ابتعد عن المكان ورفع يديه وجثى على ركبتيه وصلّى . فللوقت أخرج الرب ماء حيث وقف أنطونيوس للصلاة . فشربوا جميعهم و استراحوا . ولما ملأوا الجرار ماء بحثوا عن الجمل فوجدوه ، إذ أن الحبل التف حول حجر . فأتوا به وسقوه ماء وحمّلوا الجرار عليه وساروا بسلام . وعندما وصلوا إلى الأديار الخارجية كان الجميع ينظرون إليه كأب مقبّلين إياه ، وكأنه أتاهم بالزاد من الجبل . فحيّاهم بكلامه وقدّم إليهم المنفعة . فحصل في الجبل فرح وغيرة من أجل التقدم الروحي والتعزية بالثقة المتبادلة . وهو فرح كل الفرح عندما

رأى حماس الرهبان وأخته التي شاخت في البتولية والتي كانت ترشد متبتلات أخريات .

عجائب الشفاء

٥٥ ـ بعد أيام عاد إلى الجبل ، فابتدأ العديد من الناس بالقدوم إليه ، وتجاسر مرضى آخرون على الدخول . فكان دائماً يحثّ النسّاك الذين يزورونه على الإيمان بالله وعلى محبتهم له ، وحفظ أنفسهم من الأفكار الشريرة واللذات الجسدية ، كما كُتب في سفر الأمثال: « لا تنخدعوا بشبع البطن » (أمثال ٢٤ : ١٥) ، وعلى تجنب المجد الباطل ، والترتيل قبل النوم وبعده ، والصلاة المستمرة ، وحفظ وصايا الكتاب المقدس عن ظهر قلب ، وتذكّر أعمال القديسين وتقليد غيرتهم ، كيما تفكر النفس في الوصايا . ثم نصحهم بالتأمل الدائم في قول الرسول: «لا تغرب الشمس على غضبكم » (أفسس ٤ : ٢٦) . هذه الوصية تنطبق على كل وصية أخرى ، أي أن لا تغيب الشمس على أية خطيئة فعلناها . انه لحسن ، بل لضروري أن لا تديننا الشمس بفكر شرير وأن لا يديننا القمر بخطيئة ليلية أو بفكر شرير . ولكي ننزع هذه الأفكار يحسن ان نتذكر قول الرسول: «امتحنوا وحاسبوا أنفسكم » (٢ كور

١٣ : ٥) . ليطالب المرء نفسه في كل يوم باحثاً عن سبب لأعماله النهارية والليلية . فإذا لم يخطأ لا يفتخر ، وإذا خطىء فليتوقف عن فعل الخطايا ، متمماً فعل الخير بلا تكاسل ، ودون أن يدين قريبه أو أن يبرّر نفسه ، كما قال الرسول المطوّب ، حتى يأتي الرب الذي يفحص خفايا القلوب (أنظر ١ كور ٤ : ٥ ، وروميه ٢ : ١٦) . ففي أعمالنا كثيراً ما ننسى أنفسنا . إننا نجهل أنفسنا ، لكنّ الرب يدرك كل شيء . بما أننا ننسب الدينونة إلى الرب فليشارك الواحد منّا أحزان الآخر حاملا أثقاله ، ولنمتحن أنفسنا ، ولنهتمّ بأن نكمّل نقائصنا . أخيراً إليكم الملاحظة التالية من أجل أمانكم الروحي ، وهي أن يكتب كل واحد منكم أعماله ورغبات نفسه وكأنه سيعلنها للآخرين . تأكّدوا بأننا سنخجل من أن تكون أعمالنا مشاعة . وبسبب هذا الخجل سنكفّ عن فعل الخطيئة ، وعن تذكّر أمر شرير . من هو ذلك الخاطىء الذي يريد أن يراه الناس أثناء ارتكابه الخطيئة ؟ أو من هو ذلك الذي يفعل الخطيئة ولا يكذب حتى يبقى مجهولا ؟ فكما اننا لا نرتكب الفحشاء عندما ننظر إلى بعضنا البعض ، هكذا فلندوّن أفكارنا الشريرة وكأننا نعلنها للآخرين . اننا لن نفكّر في الشرور على الإطلاق خجلا من أن تصبح مدوّنة . هكذا فليكن تدوين الخطايا

بدل أعين زملائنا النسّاك ، حتى لا نتذكر الشرور ، لأننا نخجل من كتابتها ومن أن يراها الآخرون . إذا ما روّضنا أنفسنا على هذا الأسلوب فنقدر أن نخضع الجسد للرب وأن ندوس حيل العدو .

٥٦ ـ هذا ما حثّ أنطونيوس زائريه عليه ، مشاركاً إياهم في آلامهم ومصلّياً معهم . وكان الرب يستجيب لهم من أجله . لكنه لم يفتخر إذا استجاب الرب لطلبته ، ولم يتذمر إذا لم يستجب له ، بل كان يشكر الرب دائماً ويحثّ المتألمين على الصبر وعلى الإدراك بأن شفاءهم لا يعتمد عليه ، بل على الرب الذي يشفي من يريد وعندما يريد . فكان المتألمون يقبلون كلمات الشيخ كشفاء لهم ، وتعلّموا ألاّ يفقدوا صبرهم و ان تطول أناتهم. والذين نالوا الشفاء تعلّموا ألاّ يشكروا أنطونيوس، بل الرب وحده.

٥٧ ـ كان هناك رجل يدعى فرنتون من عائلة ملكية أصيب بمرض شديد . فكان يبلع لسانه ويكاد أن يؤذي عينيه . صعد هذا الرجل إلى الجبل وترجّى أنطونيوس أن يصلّي من أجله، فصلّى له وقال: انصرف فتُشفى. لكن بما أنه أصرّ على البقاء هناك بضعة أيام قال له أنطونيوس : انك لن تشفى إذا بقيت هنا . فاذهب وعندما تصل مصر سترى

الآية التي ستحصل لك. فآمن ذلك الرجل و انصرف. ولما رأى مصر توقف للحين مرضه وعاد صحيحاً ، كما قال له أنطونيوس الذي عرف هذا من المخلص عندما صلّى .

٥٨ ـ وكانت عذراء من فوسيرس التي في طرابلس قد مرضت مرضاً شديداً وقبيحاً . فكانت دموعها ومخاطها وسائل أذنيها تسقط على الأرض ، فتتحوّل فوراً إلى دود . وجسدها كان مشلولا وعيناها غير طبيعيتين . عندما سمع أهلها أن بعض الرهبان سيتوجّهون لزيارة أنطونيوس طلبوا منهم أن يرافقوهم مع ابنتهم ، لأنهم آمنوا بالرب الذي شفى نازفة الدم. ولما سمحوا لهم، مكث الوالدان مع ابنتهما خارج الجبل قرب بفنوتيوس الراهب والمعترف . أما الرهبان فدخلوا منسكه ، ولما أرادوا أن يخبروه عن العذراء استعجلهم وقصّ عليهم خبر مرضها وكيف أنها سافرت معهم . ولما طلبوا منه أن يأذن لأولئك بالدخول لم يسمح لهم وقال : اذهبوا فتجدوا العذراء معافاة إذا لم تكن قد ماتت . فما هذا العمل عملي، كي تأتي إلى إنسان يستحق الشفقة . فالشفاء عمل المخلص الذي يفعل رحمة في كل مكان لمن يطلب منه . فالرب استجاب لها عندما صلّت ، لكنه أعلن لي بمحبته للبشر أن ألم الفتاة سيشفى . ان هذه العجيبة حدثت حقاً ، لأنهم عندما خرجوا من هناك

وجدوا الأهل فرحين و الفتاة معافاة.

٥٩ ـ فيما كان اثنان من الإخوة ذاهبين إلى الدير ، نفد ماؤهما في الطريق . فمات أحدهما وصار الثاني على وشك الموت ، فاستلقى على الأرض ينتظر موته ، لأنه لم يعد قادراً على إتمام سيره . في ذلك الوقت دعا أنطونيوس وهو في الجبل راهبين وقال لهما : خذا جرة ماء واحملاها بسرعة إلى الطريق المؤدي إلى مصر ، لأن أحد القادمين إلى هنا ينتظر الموت إذا لم تسرعوا ، والثاني مات . هذا ما أعلنه الله لي وأنا أصلّي . ولما وصل الراهبان إلى هناك سقيا الذي كان على قيد الحياة ماء وحملاه إلى الشيخ ، ودفنا الذي مات . أمّا المسافة فكانت على بعد يوم واحد . لكن إذا سأل أحد : لماذا لم يتكلم أنطونيوس قبل موت الآخر ؟ فهو تساؤل غير صحيح ، لأن حكم الموت لم يكن في يده ، بل في يد الله الذي حكم على الأول بالموت و أعلن عن الثاني. أمّا معجزة أنطونيوس فهي انه وهو مقيم في الجبل كان يقظ القلب ، وكان الله يظهر له ما يحدث بعيداً عنه.

٦٠ ـ فيما كان جالساً على الجبل مرة ثانية رفع عينيه ألى السماء فرأى شخصاً في الفضاء مرتفعاً إلى فوق ، ورأى الذين كانوا يصادفونه فرحين جداً . وفيما كان أنطونيوس

يتعجّب ويطوّب هذا المصفّ صلّى كي يعرف من هو . فأتاه صوت يقول هذه هي نفس آمون راهب نطرية ، الذي بقي حتى الشيخوخة ناسكاً . والمسافة بين نطرية وبين الجبل الذي كان يقيم فيه أنطونيوس تبلغ ثلاثة عشر يوماً . رأى الاخوة في الجبل الشيخ متعجباً فطلبوا منه معرفة الأمر ، فسمعوا أن آمون مات منذ برهة . وآمون هذا كان معروفاً عند الاخوة ، لأنه كان يزورهم كثيراً . وجرت على يده آيات كثيرة ، وإحدى هذه الآيات هي أنه احتاج مرة أن يعبر نهر ليكوس (وكان يفيض بقوة) ، فطلب من مرافقه ثيوذورس أن يبتعد ، لكي لا يرى الواحد الآخر عارياً عندما ينزل في الماء . عندما ابتعد ثيوذورس خجل أن يرى نفسه عارياً . وفيما هو يفكر في الأمر نُقل إلى الضفة الثانية . ولما عاد ثيوذورس الذي كان تقياً ورأى أنه عبر النهر بسرعة دون أن يبتل طلب منه معرفة كيفية عبوره . ولما رأى انه لا يريد إبلاغه أمسك بقدميه و أصر على عدم تركه ما لم يعلن له السر . وحينما رأى هذا الإلحاح طلب منه ألاّ يبلغ أحداً حتى مماته ، و أبلغه انه حُمل ونُقل إلى الضفة الثانية دون أن يمشي على المياه . هذا الأمر يستحيل على البشر ، لكنه لا يستحيل على الرب وعلى الذين سمح لهم بهذا مثل الرسول بطرس العظيم (أنظر متى ١٤ : ٢٨ ـ ٢٩) . هذا ما أخبر

به ثيوذورس بعد موت آمون . وبعد مرور ثلاثين يوماً أتى بعض الإخوة من نطرية ، فسألهم الرهبان عن اليوم والساعة التي رقد فيها آمون . فكان اليوم ذاته الذي أخبرهم فيه أنطونيوس . فتعجبوا من طهارة نفس أنطونيوس الذي أخبر عن الحدث على بعد ثلاثة عشر يوماً ، ورأى نفسه ترتفع .

٦١ ـ وحينما التقى أرخلاوس الكونت بأنطونيوس في الجبل الخارجي طلب منه أن يصلّي من أجل بوليكترا العذراء العظيمة الحاملة المسيح والتي تعيش في اللاذقية ، لأنها كانت تتألم كثيراً من معدتها وجنبها بسبب النسك الشديد ، حتى أنها أصبحت عليلة الجسد كلّه. فصلّى أنطونيوس من أجلها ، أمّا الكونت فسجّل يوم الصلاة . ولما عاد الكونت إلى اللاذقية وجد البتول معافاة . فسألها متى توقف مرضها فقالت له . حينذاك أخرج الورقة التي كتب عليها اليوم الذي رفع أنطونيوس الصلاة من أجلها و أراها للجميع فتعجبوا ، و أيقنوا ان الرب شفاها من آلامها في الوقت الذي صلّى فيه أنطونيوس و توسّل إلى صلاح المخلص من أجلها.

٦٢ ـ كان أنطونيوس ينبىء عن قدوم الزائرين قبل أيام وأحياناً قبل شهر وعن سبب مجيئهم . فالبعض كانوا يأتون ليروه فقط ، والبعض الآخر لمرض أو لأنهم يتألمون من

الشياطين . لكنّ الجميع لم يحسبوا مسافة الطريق إرهاقاً لهم وخسارة ، لأن من رجع شعر بالفائدة . رغم قوله هذه الأشياء ورؤيته لها كان يرجوهم ألاّ يعجبوا به ، بل بالرب الذي يعطي قوة المعرفة وفقاً لمقدرتنا نحن البشر .

٦٣ ـ لما نزل أنطونيوس إلى الأديار الخارجية مرة ثانية طلب منه الرهبان الصعود إلى السفينة للصلاة معهم ، فاشتمّ رائحة نتنة جداً . لكنّ ركاب السفينة أكّدوا له أن الرائحة تنبعث من السمك المملّح ، أما هو فقال ان الرائحة مختلفة . وفيما هو يتكلم بهذا صرخ شاب به أرواح نجسة كان قد دخل السفينة و اختبأ فيها . عنّف أنطونيوس الشيطان باسم ربنا يسوع المسيح ، فخرج منه وعاد الرجل صحيحاً . عند ذلك أدرك الجميع أن هذه الرائحة من الشيطان .

٦٤ ـ كان هناك رجل من مشاهير الرجال قد دخل به شيطان مرعب جداً، حتى أن الرجل لم يعرف انه ذاهب إلى أنطونيوس . وكان يأكل براز جسده . عندما أتى به الذين أحضروه إلى أنطونيوس طلبوا منه أن يصلّي من أجله ، فسهر أنطونيوس معه طوال الليل ، لأنه أشفق عليه . لكنّ الشاب هجم فجأة في الصباح على أنطونيوس ودفعه داسراً إياه ، فاغتاظ مرافقو الشاب. فقال لهم أنطونيوس : لا تغضبوا

الشاب ، لأنه لا يدسرني هو ، بل الشيطـان الـذي فيه ، لأنني عنّفته و أمرته بأن يخرج إلى مكان مجدب ، ففعل هذا بعد أن جنّ جنونـه . فمجّـدوا الـرب لأن الشيطـان دسره نحوي . هذا دليل على أنه خرج منه . حين قال هذا عاد الشاب صحيحاً واستعاد رشده وعرف المكان الذي هو فيه. وقبّل الشيخ وشكر الرب .

خلقه وتصرفاته

٦٥ ـ وعجائب كثيرة صنعها أنطونيوس أوردها الرهبان باتفاق في الرأي والشكل ، لكنها لا تدعـو للعجـب بقـدر الأمور الأخرى الكثيرة . مرة أراد أن يأكل ، فنهض للصلاة في الساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر) ، فشعر بأنه يُخطف عقلياً . والغريب في الأمر أنه كان ينظر إلى نفسه وكأنه واقف خارجها ، وكان يحس بأن هناك من يقوده في الفضاء . لكنّ جماعة من الأشرار وقفت في الفضـاء و أرادت أن تعتـرض طريقه. غير أن الذين كانوا يسيّرونه في الفضاء حاربوهم ، فطلب الأشرار أن يعرفوا ما إذا كان مسؤولا أمامهم أم لا . ولما أرادوا محاسبته على أعماله من يوم ولادته لم يسمحوا لهم قائلين : كل شرّ فعله من يوم ولادته محاه الرب . فليسمح لكم التحـدث عما فعلـه من اليوم الـذي صار فيه ناســكاً

وأعطى وعداً للرب . وبما أنهم وجّهوا الإتهام دون إثبات ، صارت طريقه خالية من العوائق . حينذاك عاد إلى نفسه ورأى أنه واقف أمام ذاته وأنه هو أنطونيوس . فنسي الأكل كلياً ، وبقي ليل نهار يئن ويصلّي . لقد اندهش عندما عرف كم من الأعداء يجب أن نحارب ، وبأية أتعاب سيعبر المرء الفضاء . هذا ما عناه بولس في قوله « حسب رئيس سلطان الفضاء » (أفسس ٢ : ٢) . فهذا السلطان يملكه الشيطان محاولا أن يعيق الذين يعبرون الفضاء . لذلك كان يسدي النصيحة ويقول: «احملوا سلاح الله الكامل لتقدروا أن تقاوموا في يوم الشر » (أفسس ٦ : ١٣) ، وحتى لا يستطيع العدو « أن يقول فينا سوءاً» (تيطس ٢ : ٨) فيخزى . ونحن الذين تعلّمنا هذا الأمر لنتذكر الرسول الذي يقول: «أبالجسد؟ لا أعلم أم بغير الجسد ؟ لا أعلم ، الله يعلم » (٢ كورنثوس ١٢ : ٢) . اختطف بولس إلى السماء الثالثة وسمع كلمات لا يُنطق بها ثم نزل ، أما أنطونيوس فشاهد وصوله إلى الفضاء ، وجاهد حتى ظهرت له الطريق حرة .

٦٦ ـ كانت عنده هذه الموهبة أيضاً ، فبالرغم من كونه وحيداً في الجبل ، فإن العناية الإلهية كانت تعلن له في الصلاة الأمور التي يتساءل عنها ويطلب معرفتها . فأصبح

الإنسان المطوّب الذي يعلّمه اللـه كما هو مكتـوب (أنظـر يوحنا ٦ : ٤٥) . وبما أنـه تحـدث مع بعض زائـريه عن مسرى النفس والمكان الذي ستكون فيه بعـد هذه الحياة ، فقد دعاه صوت من العلى في الليلة التالية وقال له : قم يا أنطونيوس و اخرج لتنظر، فخرج (لأنه كان يعرف لمن يقدم الطاعة) وحينما رفع ناظريه شاهد شخصاً طويل القامة مرعباً وشائناً ، يكاد أن يصل رأسه إلى الغيوم . وشاهد كائنـات تصعد عليه وكأنها مجنّحة ، في حين أنه كان باسطـاً يديه . وكان يمنــع البعض من الصعــود ، والبعض الآخــر كان يتجاوزه صاعداً إلى السماوات من دون انزعاج . وكان ذلك الطويل القامة يصرف بأسنانـه على الـذين سقطـوا في يديه فرحاً . فصار صوت إلى أنصونيوس يقول : افهـم ما تنظر . فاستنار للحين فكره وأدرك أن هذا عبور أرواح شريرة، و ان ذلك الطويل القامة هو العدو الذي يحسد المؤمنين ، والذي أصبح مسؤولا عن الذين منعهـم من الصعود . لكنه لم يقدر أن يلقي القبض على الذين تجاوزوه ، لأنهم لـم يثقوا به . ولما شاهد هذه الرؤية حسبها مذكّراً له ليجاهد أكثر فأكثر من أجل التقدم الروحي . ان أنطونيوس لـم يخبر بهذه الأمور ، لكنه كان يتعجب أثناء لجوئه الطويل الى الصلاة ، فيسأله الإخوة ويضيّقون عليه ، فيُضطر الى الكلام ، كالأب الذي

لا يستطيع ان يخفي شيئاً عن أولاده . لكنه كان يدرك ان ضميره نقي وأن هذا السرد مفيد لهم . فيتعلمون ان هذا هو الثمر الصالح للنسك ، وان المشاهدة عزاء في تعب النسك .

٦٧ ـ كان أنطونيوس ذا خلق حميد ونفس متواضعة ، ورغم عظمته كان يحترم قوانين الكنيسة جداً ويجلّ الإكليروس ، فلم يكن يخجل من إحناء رأسه للأساقفة والكهنة . وعندما كان يزوره شماس للمنفعة الروحية ، كان يتباحث معه فيما ينفع ويعطيه فرصة الصلاة . ولم يكن يخجل من أن يتعلم منه . كان يطرح باستمرار الأسئلة ويرجو ان يسمع آراء الاخوة ، وكان يعترف بالفائدة التي يحصل عليها عندما كان يقول شيئاً نافعاً . كان وجهه ذا نعمة كبيرة وعجيبة . وكان يتحلّى بهذه الموهبة التي أعطاها إياه المخلص . فإذا ما اتفق ان وجد وسط جمهرة من الرهبان، و أراد أحدهم التعرف إليه فكان يدنو على الفور منه ، ويوجّه كلامه إليه وكأن منظره قد جذبه إليه . لم يكن مختلفاً عن باقي الرهبان في طول قامته وعرضها ، بل في خُلُقه وطهارة نفسه ، إذ كان ذا نفس هادئة وحواس غير مضطربة ووجه وضّاء بسبب فرح نفسه ، حتى ان كل حركات جسده كانت تعكس حالته النفسية وفقاً لما كُتب: « القلب الفرح

يجعل الوجه طلقاً وبحزنه يجعله عابساً » (أمثال ١٥ : ١٣) . هكذا عرف يعقوب أن لافان يفكر في الشر فقال لنسائه: «ان وجه أبينا ليس هو كما كان أمس و أول أمس » (تكوين ٣١ : ٥) . هكذا عرف صموئيل داود ، لأنه كان فرح العينين و أبيض الأسنان كالحليب (صموئيل ١٦ : ١٢). هكذا عُرف أنطونيوس كشخص هادىء النفس دائماً لا يعرف الإضطراب. فلم يكن عابساً أبداً، بل فرح الذهن.

دحض الآريوسيين

٦٨ ـ كان في الأمور الإيمانية ذا ورع يستحق التعجب ، إذ لم يشارك المليتيانيين [١] المنشقين ، لأنه عرف منذ البدء خبثهم و ارتدادهم. ولم يحدّث المانويين[٢] والهراطقة الآخرين، إلاّ إذا أراد أن يقدِّم لهم النصح ليعودوا إلى الإيمان . فكان يعتقد ويعلِّم أن مصادقتهم والتحدث إليهم دمار للنفس . هكذا ازدرى بهرطقة الآريوسيين و أوصى الجميع ألاّ يقتربوا منهم ، وألاّ يؤمنوا بمعتقدهم الوخيم . عندما أتى بعض الآريوسيين لزيارته ، امتحنهم فأدرك

---

١ ـ اتباع مليتيوس أسقف ليكوبولس في مصر ، الذي رسم أشخاصاً من خارج أبرشيته فسبّب شقاقاً طويلا .

٢ ـ اتباع ماني الذي تبنى إيمان الفرس بالثنائية ، أي بإلهيْ الخير والشر.

كفرهم . لذلك طردهم من الجبل وقال لهم أن كلامهم أخطر من سمّ الأفاعي .

٦٩ ـ لما زعم الآريوسيون زعماً كاذباً ان أنطونيوس يؤمن إيماناً كاذباً حنق وغضب عليهم . ثم نزل من الجبل برجاء من الأساقفة وجميع الاخوة . وحينما دخل الاسكندرية شجب الآريوسيين وقال ان هذه الهرطقة آخر الهرطقات وسابقة للمسيح الدّجال . وكان يعلّم الشعب ان ابن الله ليس مخلوقاً ، ولم يخلق من العدم ، بل هو الكلمة الأزلية لجوهر الله وحكمته . ومن الكفر القول إنه كان وقت لم يكن فيه الإبن موجوداً ، لأن الإبن موجود مع الآب منذ الأزل . لذلك لا تشاركوا الآريوسيين الكفرة ، «أي علاقة للنور بالظلام؟» (٢ كورنثوس ٦ : ١٤) . أنتم مسيحيون أتقياء ، أمّا هم فلا يختلفون عن الوثنيين بشيء ، ما داموا يحسبون ابن الله الآب وكلمته مخلوقاً . انهم يعبدون المخلوق من دون الخالق (أنظر رومية ١ : ٢٥) . ثقوا بأن هذه الخليقة تحنق عليهم ، لأنهم وضعوا الخالق ربّ الجميع بين المخلوقات وهو الذي خلق كل شيء .

٧٠ ـ فرح جمهور الشعب عندما سمع أن رجلا كهذا أبسل تلك الهرطقة التي تحارب المسيح . وأخذ سكان المدينة

يتراكضون لرؤيته ، بل أن الهلينيين أتوا مع الذين يدعـون كهنتهم وقالوا : نرجو رؤية رجل الله (هكذا كان يدعـوه الجميع) . هناك أخرج الرب على يديه شياطين كثيرة وشفى ممسوسين كثيرين . وطلب عدد كبير من الهلينيين بإلحاح لمس الشيخ ، لأنهم آمنوا بأنهم سيحصلون على فائدة منه . ومما لا شك فيه انه اعتنق المسيحية في تلك الأيام القليلـة عدد يسـاوي العـدد الـذي يعتنقهـا خلال سنـة واحـدة . لكنّ البعض اعتقد بأن أنطـونيوس ينزعـج من الجمـع ، لذلك حاول إبعادهم عنه . أما ذاك فقال من غـير انزعـاج : ان الجموع ليست أكثر عدداً من الشياطين التي نتصارع معها في الجبل .

٧١ ـ ولما ترك المدينة واكبناه في خروجه ، وحينما وصـل باب المدينة نادته من الخلف إمرأة وقالت : انتظر يا رجـل الله ، فإن ابنتي تتعذب جداً من الشيطـان . أرجـو منـك البقاء فلعلّ شيئاً يصيبني وأنا أركض . حينما سمـع الشيخ هذا الكلام رجونا نحن منه فبقي طوعاً. ولما اقتربـت المرأة سقطت الإبنة على الأرض ، فصلّى أنطونيوس ودعـا اسـم المسيح ، فعـادت الإبنـة صحيحـة وخرج منهـا الـروح النجس . فمجّدت الأم الله وشكره الجميع . أما هو ففرح بعودته إلى الجبل وكأنه رجع إلى بيته .

حواره مع الفلاسفة

٧٢ ـ كان أنطونيوس رجلا حكيماً وحصيفاً جداً، وما يثير الإعجاب انه كان ذكياً وحكيماً ، على الرغم من أنه لم يتعلم القراءة والكتابة . أتى إليه مرة فيلسوفان هلينيان ليجرّباه وكان هو آنذاك في الجبل الخارجي . فعرفهما من وجهيهما ودنا منهما وقال لهما بواسطة مترجم : لماذا أجهدتما نفسيكما أيها الفيلسوفان للقاء رجل أحمق . ولما قالا له انه ليس أحمق ، بل حصيف أجابهما : إذا ابتغيتما رجلا أحمق فباطلا تعبتما . لكن إذا كنتما تحسباني فطناً فكونا مثلي ، لأن المرء يجب أن يحاكي الخير . فلو ذهبت أنا إليكما لاقتديت بكما ، لكن بما انكما أتيتما إليّ فكونا مثلي ، لأني مسيحي . فتعجّب الرجلان منه وتركا المكان ، لأنهما شاهدا أن الشياطين تخافه أيضاً .

٧٣ ـ عندما التقى به بعض الفلاسفة في الجبل الخارجي ظنوا أنهم يستطيعون أن يسخروا منه ، لأنه لم يتلق العلم فقال لهم : هل العقل سبب العلم [1] ، أم العلم سبب العقل ؟ عندما أجابوه أن العقل هو الأول وهو مستنبط العلم قال أنطونيوس : ذو العقل الصحيح لا يحتاج إلى العلم .

١ ـ فضّلت استعمال لفظة العلم بدل الحرف كما هو في النص ، لأنّ المقصود هنا هو العلم الذي يأتي من تعلّم الحرف (المترجم).

فانـدهش الفلاسفـة وجميع الحـاضرين من هذا الـكلام ، وذهبوا متعجبين ، لأنهم رأوا حكمة كبيرة في رجل مثله . لم يكن أنطونيوس ذا خلق فظ بسبـب عيشـه في الجبـل حتـى الشيخوخـة ، بل كان فرحـاً واجتماعياً ، وكانـت كلماتـه مُصلْحَة بالملح الإلهي (أنظر كولوسي ٤ : ٦)حتى أنـه لم يكن من يحسده النعمة التي يملكها ، بل كان جميع القادمين إليه يسرّون به .

٧٤ ـ بعد ذلك أتى لزيارته بعض الفلاسفـة الآخـرين الذين يحسبهم اليونانيون حكماء وطلبوا منه كلمة في الإيمان بالمسيح . ولما حاولوا استعمال القياس المنطقـي على بشـارة الصليب الإلهي ، وذلك بهدف السخرية ، بقي صامتاً لفترة وجيزة ، لأنه أشفق في البدء على جهلهم . ثم قال بواسطة مترجم نقل كلامه بدقة : أيهما أفضل ، الإعتراف بالصليب أم نسب دعارة وفسق بالغلمان الى تلك التي تسمّى آلهتكم ؟ ما نؤمن به دليل شجاعة و ازدراء بالموت ، أمّا ما تؤمنون به فهو أهواء دنيئة . فأيهما أفضل أن نقول إن كلمة الرب بقي من غير تغيّر ، بعد أن اتخذ جسداً بشرياً لكي يجعـل البشر مشاركي الطبيعة الإلهية والعقلية ، أو تشبيه الإله بالكائنات التي لا عقل لها ، فنكون بذلك قد قدّمنا العبادة الى ذوات الأربـع والزحافـات وأصنـام البشر ؟ فأنتـم أيهـا الحـكماء

تحترمون هذه الأمور ، فكيف تجرؤون على السخرية منّا نحن الذين نقول إن المسيح ظهر كإنسان ، في الوقت الذي تفصلون فيه النفس عن السماء ، وتزعمون انها ضلّت وسقطت من قوس السماء على جسم الإنسان . ويا ليتكم تؤمنون بأنها تنتقل وتنحدر إلى الجسم الإنساني من دون انحدارها إلى الزحافات وذوات الأربع . ان إيماننا يعلّم بأن المسيح أتى كإنسان لخلاص البشر ،أمّا أنتم فتضلّون عندما تتكلمون على نفس غير مخلوقة . وفي حين أننا ندرك قوة العناية الإلهية ومحبتها للبشر ، وندرك أن هذا غير مستحيل عند الله ، فأنتم تزعمون أن النفس صورة العقل وتنسبونها الى الجثث وتهذرون بقولكم انها متحركة . لذلك تظهرون العقل متحركاً بسبب تحرك النفس . عندما تؤمنون بهذه الأمور التي تخص العقل تذكّروا بأنكم تجدّفون على العقل نفسه .

٧٥ ـ ماذا تقولون عن الصليب ، ما الأفضل تحمّل الصليب ضد مؤامرات الأشرار وعدم الخوف من الموت المقبل ، أم سرد خرافات عن ضلالات أوسيريدس و ايسيدس وعن موآمرات تيفونوس وهرب يرونس وأكل الأولاد وقتل الآباء ، لأن هذه هي حكمتكم . انكم

تسخرون بالصليب فلماذا لا تعجبون بالقيامة ؟ فالذين تحدّثوا عن الصليب كتبوا عنْ القيامة . لماذا تذكرون الصليب وتسكتون عن الأموات الذين قاموا من بين الأموات وعن العميان الذين أبصروا والمفلوجين الذين شفوا والبرص الذين تطهّروا والسير على مياه البحر ، وكل العجائب والآيات الأخرى التي تشير إلى المسيح إلهاً وليس إنساناً . كم تظهرون لي أنكم ظلمتم أنفسكم ، لأنكم لم تبحثوا في الكتاب المقدس . ادرسوا الكتاب وانتبهوا إلى أن ما فعله السيد يظهره إلهاً أتى لخلاص البشر.

٧٦ ـ انكم أوردتم لنا اعتقاداتكم . فماذا تقدرون أن تقولوا عن البهائم سوى أنها وحشية ولا تعقل . لكن إذا أردتم أن تقولوا مثلما اسمع بأن هذه الأمور هي كخرافات تحمل معنىً مجازياً ، أي خطف صبية برسيوني يرمز إلى الأرض وعرج إيفستوس إلى النار والايرا إلى الفضاء وآبولون إلى الشمس وارتميس إلى القمر وبوسيذنا إلى البحر . انكم بهذه الأمور لا تعبدون الله نفسه ، بل المخلوق من دون الخالق . وإذا ما قلتم انكم الّفتم هذه الأساطير ، لأن الخليقة جميلة ، فمن الواجب ان تقفوا عند حدّ الإعجاب بالمخلوقات و ان لا تؤلهوها ، وأن لا تعطوا الإكرام اللائق بالخالق إلى المخلوق . وإلاّ لكان من الواجب أن

نعطي الإكرام اللائق بالمهندس الى البيت الذي بناه ، والإكرام اللائق بالقائد إلى الجندي . فماذا تقولون عن هذه الأمور ، لكي نعرف إذا كان في الصليب ما يستحق السخرية؟

٧٧ ـ فصاروا في حيرة وأخذوا يلتفتون إلى هنا وهناك . لكنّ أنطونيوس ابتسم وقال ثانية بواسطة مترجم : هذه الأمور تبدو لي كاذبة من النظرة الأولى . لكن طالما انكم تعطون وزناً للكلام البرهاني ، وتتقنون هذا الفن ، وتريدوننا أن نعبد الله ببرهان منطقي فقولوا لنا كيف نتحقق من الأمر وخاصة من معرفة الله ؟ وما هو الأسبق البرهان المنطقي أم الإيمان الحي ؟ عندما أجابوا بأن الإيمان الحي هو الأسبق ، وأنه هو المعرفة الحقيقية قال لهم : حسناً قلتم ، لأن الايمان يستند إلى ميل النفس ، أما الجدلية فتؤلف فناً من فنون الكلام . إذن ، لا تكون البراهين المنطقية مهمة عند الذين يملكون الإيمان الحي ، بل تكون نافلة . فما ندركه نحن بالايمان تحاولون أنتم فهمه بالكلام . لذلك لا تقدرون في كثير من الأحيان ان تعبّروا عما نستطيع إدراكه . إذن ، الإيمان الحي أفضل وأضمن من مقاييسكم السفسطائية .

٧٨ ـ اننا لا نملك سرّ الحياة المسيحية في حكمة كلام

الهلينيين (أنظر ١ كور ١ : ١٧) ، بل في قوة الإيمان الذي منحنا إياها الله بيسوع . والدلالة على صحة كلامنا أننا نؤمن بالله ونميِّز بواسطة مخلوقاته عنايته في كل الأمور مع أننا لم نتلق العلم. والدلالة على فاعلية إيماننا اننا نستند إلى الإيمان بالمسيح ، بينما تعوّلون أنتم على مماحكات سفسطائية . ان صور أوثانكم تضمحل ، أمّا إيماننا فينتشر في كل مكان . أنتم لا تستطيعون عن طريق قياسكم المنطقي وسفسطكم أن تربحوا مسيحياً واحداً بإقناعكم إياه . أمّا نحن فإذ نعلّم الايمان بالمسيح نعرّي الإيمان بالخرافات، لأن الجميع يعترفون بأن المسيح هو الله و ابن لله . أنتم لا تعيقون بكلامكم الجميل تعليم المسيح ، أمّا نحن فبذكرنا المسيح المصلوب نطرد الشياطين التي تحترمونها أنتم كآلهة . فحيث توجد إشارة الصليب يضعف السحر ولا تفعل العِرافة .

٧٩ ـ قولوا لي أين سحركم الآن ؟ وأين هم سحرة مصر ؟ أين هي أوهام السحرة ؟ متى ضعفت هذه وبطلت ؟ أليس عند ارتفاع صليب المسيح ؟ فأمّا أن يكون الصليب مستحقاً الهزء أو أن تكون الأمور التي أبطلها بلا قوة ؟ ومما يدعو للعجب ان عبادتكم للوثن لم تُضطهد بعد ، لأن الجميع يكرمونها في كل مدينة . أمّا المسيحيون فيُضطهدون

دائماً ، ومع ذلك فإن إيماننا يزدهر ويزداد أكثر من إيمانكم . وعلى الرغم من أن إيمانكم يتلقى دعماً ويتخذ صفة رسمية فإننا نراه يضعف ، في حين ان الايمان بالمسيح وتعليمه ملأ المسكونة ، رغم هزئكم بهما ورغم اضطهاد الملوك لهما . متى أصبحت معرفة الله لامعة هكذا ؟ متى ظهرت العفة وفضيلة البتولية على هذا النحو ؟ ومتى احتُقر الموت الى هذا الحد ، إلاّ عندما رُفع الصليب ؟ لا يقدر احد أن يشك في هذا، لأنه يرى بعينيه الشهداء وهم يحتقرون الموت من أجل المسيح، والعذارى وهنّ يحفظن أجسادهن بعفة وطهارة.

٨٠ ـ هذه الإشارات كافية للدلالة على أن الإيمان بالمسيح هو وحده الأمر الحقيقي لاتقاء الله . أنتم لا تؤمنون بالله ، لأنكم تطلبون مقاييس منطقية . نحن لا نعتمد على أساليب الحكمة الهلينية في الإقناع ، كما قال معلّمنا بولس (١ كور ٢ : ٤) ، بل نقنع بالإيمان الذي يسبق الصناعة المنطقية . وكان هناك في ذلك المكان مرضى يعانون من الشياطين ، فاتى بهم إلى الوسط وقال: ابرئوا هؤلاء بقياسكم المنطقي أو بأي فن آخر أو بالسحر ، وادعوا أصنامكم . وإذا كنتم لا تقدرون ان تخرجوا الشياطين فأوقفوا حربكم ضدنا لتروا قوة صليب المسيح . ولما قال هذا دعا المسيح ورسم إشارة

الصليب مثنى وثلاث على المرضى ، فنهضوا للحين كاملي العقل ومسبحي الرب . فتعجب أولئك المدعوون فلاسفة و اندهشوا جداً من حكمة الرجل لهذه الآية التي حصلت على يده . قال لهم أنطونيوس لِم تتعجبون من هذا ؟ نحن لا نفعل هذه الأمور بقوتنا ، بل ان المسيح يفعلها بواسطة المؤمنين به . آمنوا لتروا أن ما نؤمن به ليس فناً من فنون الكلام ، بل الإيمان العامل بالمحبة في المسيح (غلاطية ٥ : ٦) . إذا اقتنيتم الإيمان لن تطلبوا فيما بعد براهين منطقية ، بل ستدركون انه أمر كاف . هذه هي أقوال أنطونيوس ، أمّا هم فتعجبوا من هذا و انصرفوا مقبّلين إياه ومعترفين بالفائدة التي نالوها منه .

نصائحه إلى الملك قسطنطين وأولاده

٨١ ـ ان شهرة انطونيوس وصلت إلى الملوك . فحينما سمع عنه الإمبراطور قسطنطين وولداه الإمبراطوران قسطنديس كونستنس كتبوا إليه كما إلى أب و رجوا منه أن يتلقوا أجوبة على رسائلهم . لكنه لم يحسب لها كبير حساب ، ولم يسرّ بها ، بل بقي كما كان قبل ان يكتب إليه الأباطرة . ولما حملوا إليه رسالة دعا الرهبان وقال لهم : لا تتعجبوا من أن الملك كتب لي ، بل تعجبوا من ان الله كتب

الشريعة الى الناس وكلّمنا بابنه (عبرانيين ١ : ٢) . هو لم يشأ في البدء ان يقبل الرسائل ، إذ قال انه لا يعرف أن يجيب عليها. لكن بما ان الرهبان رجوا منه قائلين ان الملوك أناس مسيحيون لذلك أجبهم لئلا يعثروا من جراء الرفض ، فقبل أن يقرأها ، ثم أجابهم مستحسناً عبادتهم للمسيح وناصحاً إياهم بالأمور الخلاصية وعدم النظر الى الأمور الحاضرة ، بل أن يتذكروا اكثر الدينونة الآتية، و ان يعرفوا ان المسيح هو الملك الحقيقي والأبدي : وحثّهم على العطف وحماية البار والفقير . أمّا هؤلاء ففرحوا بجوابه . هكذا كان الجميع يحبون أنطونيوس ويدعونه إلى أن يكون لهم أباً.

إعلان الله له عن خطر الآريوسيين على الكنيسة

٨٢ ـ هكذا عرفه الناس ، وهكذا أحب هو الذين يجتمعون به . وقد رجع بعد ذلك الى الجبل الداخلي ليمارس نسكه المعتاد . وكثيراً ما كان يبقى صامتاً عندما يجلس مع الزائرين او يتمشى معهم ، كما كُتب في دانيال (أنظر دانيال ٤ : ١٦) . لكن بعد برهة كان يحدّث الإخوة الذين معه عن الأمور الآتية . فكان مجالسوه يدركون انه يشاهد رؤية . فقد كان يرى ما يحدث في مصر وهو في الجبل ،

وكان يقصّ للأسقف سيرابيون [1] ما يشاهده في الرؤية ، عندما كان الأسقف يرى انشغال أنطونيوس بها . ذات مرة وفيما هو يقوم بالعمل اليدوي أصبح وكأنه في حالة انجذاب روحيّ (وجد) ، وأخذ يتنهد بأنين . بعد وقت رجع إلى الذين كانوا بقربه وأخذ يئن ، ثمّ رفع الصلاة وهو يرتجف ، فبقي وقتاً طويلا يصلّي راكعاً ، وعندما نهض أخذ بالبكاء . فخاف الذين حوله خوفاً شديداً ورجوا منه أن يعرفوا الأمر . ولما ضايقوه من كثرة إلحاحهم ، تنهد بأنين وقال : يا بنيّ خير لي أن أموت قبل أن يحدث ما شاهدته في الرؤية . ولما طلبوا منه ثانية قال وعيناه تدمعان : أوشك أن يحلّ على الكنيسة غضب كبير وأن تسلّم الكنيسة إلى أناس يشبهون الوحوش غير الناطقة . فأني رأيت المائدة المقدسة يحيط بها من جميع جوانبها أبغال ترفس ما عليها ، مثل رفس الوحوش عندما تقفز من غير انتظام . انتم سمعتم أنيني ، لأنني سمعت صوتاً يقول : سيكون مذبحي رذالة . هذا ما شاهده الشيخ . وبعد سنتين من قوله وقعت ثورة الآريوسيين الحالية ، فاقتحموا الكنائس وسرقوا الآنية وحملوها إلى الوثنيين . فهم ألزموا الوثنيين أن يتركوا أماكن عملهم

---

١ - صديق أنطونيوس وأسقف تمويس وهو الذي وجّه اليه القديس اثناسيوس أربع رسائل في الروح القدس .

ويجتمعوا بهم . ثمّ فعلوا بالمائدة المقدسة ما أرادوا . عند ذلك أدرك الجميع أن رفسات البغال أنبأت أنطونيوس بما يفعله بحماقة الآريوسيون بحضور أولئك . عندما شاهد أنطونيوس هذه الرؤية دعا من حوله وقال لهم : لا تتوانوا يا أولادي ، فكما غضب الرب هكذا سيقدم الشفاء ، فتكتسب الكنيسة جمالها بسرعة وتتلألأ كعادتها . وسترون المضطهَدين وهم يتراجعون ، وسيعود الكفر الى أعشاشه ، وسيُجاهر بالإيمان الحقيقي في كل مكان بشجاعة وحرية . احترزوا من أن تدنسوا أنفسكم مع الآريوسيين . فما تعليمهم تعليم الرسل ، بل تعليم الشياطين، وأبيهم إبليس ، أو قل إنه تعليم عاقر وجاهل ، لا نتيجة عقل صحيح ، تماماً مثل بهيمية الأبغال.

عجائبه الجديدة ، وصاياه وانتقاله

٨٣ ـ هذه هي الأمور المتعلقة بأنطونيوس ولا ينبغي أن نشك في اجتراح انسان واحد لعجائب كهذه . فهذا هو وعد الرب القائل : «لو كان لكم إيمان بمقدار حبة خردل لقلتم لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولما عجزتم عن شيء » (متى ١٧ : ٢٠) وأيضاً: «الحق الحق أقول لكم ان سألتم الآب شيئاً باسمي أعطاكم إياه، اطلبوا تنالوا» (يوحنا

١٦ : ٢٣ - ٢٤) . وهو نفسه قال لتلاميذه وكل من آمن به : « اشفوا المرضى اطردوا الشياطين ، مجاناً أخذتم فمجاناً اعطوا » (متى ١٠ : ٨) .

٨٤ - لم يشف أنطونيوس المرضى بأمره ، بل بصلاته وبدعاء المسيح ، لكي يظهر للجميع انه ما كان هو الذي يفعل هذا ، بل الرب الذي أظهر محبته للبشر وشفى المتألمين بواسطة أنطونيوس . وكان فضل أنطونيوس في الصلاة والنسك ، اللذين مكث من أجلهما في الجبل فرحاً بمشاهدة الإلهيات . لكنه كان يحزن من ازعاج الناس له ، فكان يُضطر للذهاب إلى خارج الجبل . توجّه مرة إلى الجبل عدد من القضاة و رجوا منه النزول، لأنهم لم يقدروا ان يدخلوا تلك المنطقة بسبب المتقاضين الذين كانوا يطاردونهم . فطلبوا أن يروه على انفراد . أمّا هو فأخذ طريقاً آخر وتوقف عن سلوك الطرق التي تؤدي إليهم . لكنهم أصرّوا على لقائه و أرسلوا الواقعين تحت طائلة المسؤولية بحماية الجند ، لكي ينزل بحجة أولئك . فاضطر الى النزول إلى الجبل الخارجي ، لأنه رآهم يبكون . فلم يذهب تعبه باطلا ، بل آل وصوله إلى منفعة كثيرين . فلقد نصح القضاة بتفضيل العدل وخوف الله وعرّفهم بأنهم يدانون كما يدينون (متى ٧ : ٢) . أمّا هو فأحب حياة الجبل على أي شيء آخر .

٨٥ ـ أخذ المحتاجون إلى مساعدة يضايقونه مرة ، حتى أن أحد القواد رجا منه ان ينزل فنزل . ولما كلّمه عمّا يقود إلى الخلاص وعمّا يحتاجون إليه همّ بالعودة سريعاً . لكن ذلك المدعو دوقا رجا منه البقاء أكثر، فقال انه لا يستطيع أن يطيل بقاءه معهم ، وأقنعه بمثل مفرح إذ قال : إذا بقي السمك على اليابسة طويلا يموت ، وهكذا إذا بقي الرهبان معكم طويلا يصابون بالتراخي . فكما يكون نزول السمكة إلى البحر ضرورياً هكذا يكون الإسراع إلى الجبل ضرورياً لنا ، لئلا ننسى في تأخرنا الحياة داخل الجبل . عندما سمع منه القائد هذه الأمور وأمور أخرى قال بإعجاب : ان هذا هو حقاً عبد لله . فمن أين لإنسان بسيط كهذا أن يملك عقلا عظيماً بهذا المقدار لولا محبة الله له .

٨٦ ـ كان هناك قائد اسمه فلاكيوس يطارد المسيحيين مطاردة مريرة ، لأنه حمس في مساندة الآريوسيين ذوي الاسم السيء . ولمّا كان قاسي القلب كثيراً كان يضرب المتبتلين ويعرّي الرهبان ليجلدهم . فأرسل إليه أنطونيوس كتاباً يقول فيه انني أرى الغضب آتياً عليك ، فتوقف عن اضطهاد المسيحيين ، لكي لا يحلّ بك الغضب الذي أوشك أن يقترب منك . فضحك فلاكيوس ورمى الكتاب أرضاً وبصق عليه وشتم الذين سلّموه الرسالة و أوصى ان يخبروا

أنطونيوس بما يلي : انني آت إليك ، لأنك تهتم بالرهبان . لكن ما ان مرت خمسة أيام حتى حلّ عليه ذلك الغضب . فعندما انطلق فلاكيوس و نسطوريوس والي مصر إلى دير الإسكندرية الأول ، الذي كان يدعى خيراوس ، على ظهر حصانين من أحصنة فلاكيوس، وكانا من أكثر الأحصنة التي يربيها وداعة ، فقبل أن يصلا الى المكان ابتدأ الحصانان باللعب مع بعضهما كالعادة . لكن فجأة نهش الحصان الأكثر وداعة والذي كان يمتطيه نسطوريوس فلاكيوس ورماه أرضاً، ثمّ انقض عليه واقتلع فخذه بأسنانه . فنقل فلاسيوس فوراً إلى المدينة حيث مات بعد ثلاثة أيام . فتعجب الجميع ، لأن ما تنبأ به أنطونيوس تحقق بسرعة .

٨٧ ـ هكذا كان يسدي النصائح الى ذوي المزايا الصعبة ، ويحذّر الذين كانوا يجتمعون به ، حتى ينسوا الإدانة ويطوّبوا الذين اعتزلوا العالم . وهكذا حمى المظلومين ، إذ أحسّ بأنه هو المتألم ولا هم . فكان قادراً على إفادة الجميع ، حتى أن عدداً كبيراً من الجنود ومن الأغنياء تركوا أعباء الحياة وصاروا رهباناً . وكأنه الطبيب الذي وهبه الله إلى مصر . فمن كان حزيناً ولم يرجعه فرحاً ؟ ومن أتاه باكياً على أمواته ولم يطرح عنه الكآبة ؟

ومن أتاه غاضباً ولم يتحوّل غضبه إلى محبة ؟ ومن كان فقيراً ويائساً والتقى به ولم يزدر بالغنى ويتعزّ بفقره ؟ وأي راهب سقط في الإهمال وأتى إليه ولم يصبح أقوى من قبل؟ وأي شاب صعد إلى الجبل ورآه ولم ينكر اللذات ولم يحب العفة ؟ ومن ذا الذي جرّبته الشياطين وأتى إليه ولم يجد راحة ؟ ومن أتى متضايقاً ولم يجد راحة ؟ ومن أتى متضايقاً من أفكار شريرة ولم يهدأ فكره ؟

٨٨ ـ كان عظيماً في نسكه ، كما قلت ، لأنه امتلك موهبة تمييز الأرواح وعرف تحركاتها . ولم يجهل إلى أين يوجّه اهتمامه واندفاعه . ولم يكن هو وحده الذي لم تخدعه الأفكار الشريرة ، بل كان يعزّي الذين كانوا يتضايقون منها ويعلّمهم كيف يبعدون هجماتها ويخبرهم عن ضعف الشياطين وحيلها . فكان يرجع كل واحد متشدداً وعارفاً حبائل إبليس وشياطينه . كم من عذارى مخطوبات بقين عذارى من أجل المسيح عندما رأين أنطونيوس من بعيد ؟ فكان يأتي إليه الكثيرون من أماكن بعيدة ويرجعون بعد حصولهم على الفائدة ، وكأن أباهم أرسلهم . وعندما رقد كانوا وكأنهم أيتام الأب . فكانوا يتعزون من ذكر اسمه فقط ، ويحفظون في ذاكرتهم نصائحه وحثّه لهم .

٨٩ ـ ويجدر بي أن أخبركم عن نهاية حياته أنتم الذين

تملكون رغبة في السماع ، لأن هذه النهاية تستحق الغيرة . فهو اعتاد زيارة الرهبان الذين هم في الجبل الخارجي . عندما عرّفته العناية الإلهية عن نهاية حياته كلّم الاخوة قائلا : هذه هي زيارتي الأخيرة لكم ، ولا أدري إذا كنّا سنلتقي في هذه الحياة بعد . حان وقت رحيلي فإنني بلغت مئة وخمس سنوات . حينما سمعوا هذا بكوا وعانقوه وقبّلوه . أما هو فكلّمهم وكأنه يترك مدينة غريبة ليعود إلى مقرّه ، و أوصاهم بأن لا يتهاملوا في الأتعاب ولا يكلّوا في النسك، بل أن يعيشوا وكأنهم يموتون في كل يوم . وكما قلت لكم سابقاً : احفظوا أنفسكم من الأفكار الدنسة ولتكن عندكم غيرة القديسين ، ولا تدنوا من المليتانيين المنشقين ، لأنكم تعرفون قصدهم الشرير . لا تتصلوا بالآريوسيين ، لأن كفرهم معروف عند الجميع ، وإذا ما رأيتم مساندة القضاة لهم فلا تضطربوا ، لأن توقفها وشيك وافتخارهم بقوتهم أمر وقتي وزائل . فاحفظوا أنفسكم سالمة منهم وحافظوا على تقليد الآباء وقبل كل شيء على الإيمان القويم بيسوع المسيح الذي تلقنتموه من الكتاب المقدس والذي طالما ذكّرتكم به .

٩٠ ـ و ألحّ الاخوة عليه في البقاء الى جانبهم ليموت هناك ، فلم يقبل لأسباب كثيرة ، كما كان يظهر بصمته .

والسبب الرئيسي هو أن المصريين اعتادوا تكفين أجساد العظماء وعلى الأخص الشهداء القديسين وحفظها من دون دفنها تحت التراب . فكانوا يضعونها على منضدة ويحفظونها داخل البيوت ظانين بأن هذا تكريم للراقدين . فطالما رجا أنطونيوس من الأسقف أن يرشد الشعب ووبّخ الرجال و زجر النساء قائلا، انه أمر غير شرعي وغير مقدس أبداً. فها ان أجساد البطاركة والأنبياء ما زالت محفوظة حتى هذا اليوم في القبور ، كما أن جسد المسيح نفسه وضع في قبر ووضع حجر عند باب القبر ، وبقي مدفوناً إلى أن قام في اليوم الثالث (أنظر متى ٢٧ : ٦٠ ، يوحنا ١٩ : ٤١ - ٤٢) . بهذا القول أراهم أن عدم دفن الأجساد أمر يخالف الشريعة ، حتى ولو كانت الأجساد مقدسة . فأي جسد أسمى وأقدس من جسد الرب . وعندما سمع الكثيرون هذا الكلام ابتدأوا بدفن الأجساد وشكروا الرب ، لأنهم تلقوا تعليماً كهذا.

٩١ - أمّا هو فإذ كان يعرف هذا ويخاف من أن يفعلوا هكذا بجسده غادر بسرعة بعد أن حيّا الرهبان الذين كانوا في الجبل الخارجي . ففضّل الجبل الداخلي حيث اعتاد الإقامة ، وبعد أشهر قليلة مرض فدعا الناسكين اللذين نسكا معه مدة خمسة عشر سنة وخدماه في شيخوخته وقال

لهما : أنـا أسـير الآن على طريق الآبـاء ، كما هو مكتـوب (يشوع ٢٣ : ١٤) ، لأنني أرى الرب يدعوني . فكونـا صاحيين ولا تضيّعا نسككما الطويل ، بل اهتما بالحفاظ على غيرتكما ، كما لو كنتما في البداءة . اعلما بأن الشياطين تريد شراً بكما . فهي متوحشة إلاّ أنها ضعيفة . لا تخافا منها ، بل تنفسا المسيح دائماً وآمنا به . عيشا وكأنكما تموتان يومياً وتذكّرا نصائحـي . لا تتصـلا بالمنشقـين ولا بالآريوسيين الهراطقة ، لأنكما تعلمان كيف أتجنبهم بسبب هرطقتهم التي تحارب المسيح وبسبب تعاليمهم الغريبـة . اهتما بأن يكون الرباط بينكما قوياً، و اتحدا أولا بالمسيح ثم بالقديسين الذين ستلتقيان بهم بعد الموت في المساكن الأبـدية. فكّرا في هذه الأمور واعقلاها . إذا كنتما تهتمان بي فتذكّرا انني أب لكما ولا تفسحا في المجال للآخرين بنقل جسدي الى مصر كي لا يضعوه في بيوتهم . لهذا دخلت الجبل وأتيت إلى هنا . انكما تعلمان كيف كنت دائماً أوبّخ الذين يفعلون هذا الأمر حاثاً إياهم على الكفّ عن هذه العـادة . ادفنـا جسـدي تحـت التراب و احفظا قولي وهو ألاّ يعرف احد غـيركما المكان، لأنني سأحصل عليه بلا فساد في قيامة الأموات. وزّعا ثيابي فأعطيا اثناسيوس الأسقف ثوبي المفرّى، ثوبي الـذي كان كفراش لي وكل ما وهبه لي جديداً وأنا أبليته. وأعطيا الثوب

المفرّى الآخر إلى الأسقف سرابيون . واحتفظا أنتما بكسائي المكسو بالشعر . فإنّ أنطونيوس ينتقل ولن يبقى معكما .

٩٢ ـ حالما قال هذا الكلام عانقاه . فمدّ رجليه ونظر إليهما كصديقين قادمين إليه ، وفرح جداً حتى أن وجهه كان بهياً . فمات و انضم إلى الآباء. وكما أوصاهما لفّا جسده ودفناه تحت التراب . ولم يعلم أحد حتى اليوم أين هو قبره سوى هذين . وكان كل منهما ينظر إلى الثوب الممزّق الذي كان معه وكأنه كنز ، لأن رؤية ثيابه كانت بالنسبة إليهما رؤية أنطونيوس نفسه . وعندما كانا يرتديان ثيابه كانا وكأنهما يحفظان نصائحه بفرح .

٩٣ ـ هذه هي نهاية أنطونيوس في الجسد ، وتلك هي بداءة النسك . وعلى الرغم من قلة هذه الأمور إذا ما قورنت بفضائله ، فكّروا في أنطونيوس رجل الله الذي حفظ منذ حداثته حتى هذه السنّ المتقدمة غيرة النسك غير منتقصة ، دون أن ينتصر عليه الطعام الحسن بسبب شيخوخته ودون أن يغيّر شكل ثيابه بسبب ضعف جسده ، ودون أن يغسل رجليه بالماء أبداً . لكنه بقي في كل شيء من غير أذى . فنظره لم يضعف وأسنانه لم تتساقط ، بل بقيت نخرة تحت اللثة بسبب تقدمه في السنّ . كما بقي صحيح

اليدين والقدمين . وكان أشدّ قوة من كل الذين استخدموا نظاماً معيّناً في طعامهم وألبسة متنوعة و استحماماً كثيراً. ان شهرته الواسعة ومحبة الجميع له وإعجابهم به ومحبتهم له دون أن يروه دليل على فضيلة نفسه ومحبتها لله . ان أنطونيوس لم يُعْرف بسبب مؤلفاته ولا بسبب حكمة خارجية أو فنّ ما ، بل بسبب اتقائه لله . فلا أحد ينكر أنها موهبة من الله ، إذ كيف وصلت شهرته إلى اسبانيا و فرنسا و روما و افريقيا وهو قابع في الجبل، لو لم يكن الله هو الذي جعل أخصاءه معروفين في كل مكان ووعد أنطونيوس بهذا منذ البدء ؟ فحتى لو عمل أخصاؤه في الخفاء و سعوا إلى تجنب انتباه الناس فإنهم سيعرفون ، لأن الربّ هو الذي يظهرهم أنواراً للجميع ، لكي يعرف السامعون انهم قادرون على تطبيق وصايا الله ، ولكي يكتسبوا غيرة في طريق الفضيلة .

٩٤ ـ اقرأوا هذه على بقية الإخوة ، حتى يعرفوا كيف يجب أن تكون حياة الرهبان ويقتنعوا بأنّ الرب والمخلص يسوع يمجّد الذين يمجدونه وبأنه يقود الذين يخدمونه إلى النهاية ، لا إلى ملكوت السماوات فحسب ، بل يجعلهم هنا معروفين في كل مكان لمنفعة الآخرين ، رغم أنهم يختبئون ويسرعون إلى الإنسحاب والإبتعاد . وإذا لزم الأمر اقرأوا هذه على الوثنيين ، لكي لا يدركوا فقط أن الرب يسوع

المسيح هو الله و ابن الله، بل أن الـذين يعبدونـه بصدق ويؤمنون به بتقوى يطردون الشياطين التي يظنهـا الهلينيون آلهة . انها ليست آلهة ، لأن المسيحيين يدوسونها ويطردونها كمضلّلة ومفسدة للناس ، وذلك بيسوع المسيح ربنا الذي له المجد الى دهر الداهرين .

آميـــــن

القسم الثاني

حول أقوال القديس انطونيوس الكبير

لرهبنة دير مار جرجس الحرف

لقد صدر لرهبنة دير القديس جاورجيوس في دير الحرف الكتب التالية في منشورات النور: «من أجل فهم الليتورجيا وعيشها»، «مدخل الى الكتاب المقدس»، «اصول الحياة الروحية»، «في الكهنوت»، «السلم الى الله»، «سر عطية الدموع»، «يوحنا كرونستادت»، كما اسهمت الرهبنة او بعض اعضائها في «فصول في الصلاة والحياة الروحية»، «الكتاب المقدس وحياتنا الشخصية»، «الجسد والعفة والحب»، «الروح القدس»، و«القصد الإلهي».

تمهيـــد

نـروم في هذه الصفحـــات شرح « أقــوال » القـــديس أنطونيوس الكبير في محاولة لكشف كثافة الخبرة الروحية التي تحمل ، والإفادة منها في العمق .

هذه الأقوال لا تنقل إلينا « تعليماً » منتظماً لأنطونيوس بل « صدى » مباشراً و« ملموساً » لحياته . وليست هي مواعظ نظرية عقلانية بل : « أنا كأخيكم الأكبر أكلّمكم بما علّمني إياه الاختبار » .

انها بمثابة ينابيع فجّرها الروح بعد جهاد طويل ، ينابيع قوة نارية قادرة على تغيير حياتنا .

« ألا تقرأون الكتاب » ؟ لما وجّه أنطونيوس هذا السؤال الى بعض الإخوة القاصدين إياه أجابوه : « ولكننا نريد أن نسمعـه منك يا أبانا. . . »[1] : التمـسوا ما وراء الكتـاب

(١) انظر القول رقم ١٩ .

المكتوب، التمسوا الكتاب المحفور إنجيلاً حياً محققاً في قلوب القديسين.

فما أحوجنا نحن أيضاً أن نصغي إليهم، بإيمان واتضاع، لعلّ قصد الله نحونا ينجلي، في ضوء خبرتهم، عمراً يشهد لعجائبه . . .

مقدمـــة

ان ما يسمّى بـ « أقـوال » الآبـاء في الأدب المسيحـي النسكي نشأ بعد ظهور الحياة الرهبانية ، عندما أخذ البعض بتدوين الأقوال والنوادر المأثورة لكبـار الرهبـان القديسـين وتناقلها ونشرها بمثابة تعليم حيّ فريد . [1]

« الأقوال » المنسوبة للقديس أنطونيوس الكبير (وعددها ثمان وثلاثون) وردت ضمن مجموعات أقوال آباء البرية منذ بداية كتابتها وانتشارها ، أي بعد القرن الرابع بقليل .

وهي مرتبة في صدر المجموعة الموحّدة التي اندمجت فيها المجموعات المختلفة منذ نصف القرن الخامس ، والتي نورد أقوال قائليها بأسمائهم على الترتيب الأبجدي ـ علماً بأنـه

---

١ ـ للإطلاع تفصيلاً على كيفية تحرير هذه الأقـوال وشـخصية قائليهـا ومحتوياتها وتنوّع مجموعاتها وترجماتها الخ .. الرجوع إلى كتاب «أقوال الآباء الشيوخ» ، سلسلة «آباء الكنيسة» ، رقم ٦ ، منشورات النور ، ١٩٨٣ .

ظهرت بعد ذلك مجموعات تورد أقوال الآباء مصنفة بحسب مواضيعها .[1]

ان أقوال القديس أنطونيوس - كسائر أقوال آباء البرية - مقاطع قصيرة تحتوي « كلمات » التمسها الرهبان من أبيهم الشيخ في خلاص النفس ، أو حوادث بسيطة تميّزت بمعنى خاص ، أو معجزات موجزة كانت مناسبة لتعليم ، أو رؤى ذات فائدة ، وبالإجمال نقل خبرة تنير أمام الآخرين سبيل الحياة النسكية الروحية وتقيهم الإنحراف وضلال الطريق . . .

ومما لا شك فيه أن هذه الأقوال ، على بساطتها وعفويتها ، تجيب في مجملها على مشكلة وجود الإنسان بتبيان ما يمكن أن تؤول إليه عملياً حياته في ضوء تطبيق الإنجيل . . .

وإذا ما أردنا أن نكون في الجوّ أكثر ، ونقرأ هذه الأقوال في إطارها الذي يوضح لنا مدى معناها وعمقه ، فينبغي الرجوع إلى سيرة القديس أنطونيوس التي انبثقت منها هذه

١ ـ أنظر مثلاً الباب الثاني من كتاب « بستان الرهبان » للكنيسة القبطية (مطبوعات مطرانية بني سويف ١٩٧٧).

الأقوال كثمرة حياة طويلـة ، مركّزة كلياً على اتبـاع المسيح كلياً .[1]

إلاّ أنه ليس المقصود ان نطالع سيرة القديس أنطونيوس وأقواله لكي نقلّدها تقليداً ، بل لنفهـم « روحهـا » ونـدع نفوسنا تستنير بالنور الذي يشرق منها . وعند ذاك ـ عند اشتراكنا في الروح الواحد الـذي يتواصـل فيه وبـه التقليد الحيّ في الكنيسة ـ نستطيع ان نفيد منها اليوم في أمانة حرة خلاّقة .

هذا ونجمل فيما يلي الخطوط الرئيسية لروحانية القـديس أنطونيوس التي من شأنها أن تضعنا في الإتجاه الذي أوصله إلى ما وصل إليه وتكشف لنا سرّ نجاحه في اتبـاع الـرب .

١ ـ ان سرّ نجاح القديس أنطونيوس هو تعلّقه بالمسيح : : آمـن به وتبعـه بدون تردد وأحبـه حبـاً جمّـاً كان أساسـاً لحياته . . .فقد ترك كل شيء بعد لقائه لقاءً شخصياً وتفرّغ لإرضائـه وخدمتـه ، وتغلّـب على التجـارب وهجمات الشياطين كافة بقوة اسمه القدوس ، و اعتزّ وتفاخـر بأنـه يحبّه ، وفرح به ، وتهلل ، حتـى بلـغ الأوج حيث قال :

---

١ ـ أنظر «سيرة القديس أنطونيوس الكبير» في القسم الاول من الكتاب .

« أنا لا أخاف الله لأني أحبه » . [1]

٢ ـ والظاهرة البارزة التي شددته باستمرار و آلت به إلى ما آل إليه هي **دوام مواصلة السير** : حتى أنه يمكن وصف حياته كلها بالسير المطّرد الذي لا يعرف التوقف ، بالبدء كل يوم من جديد ، بالتوغل والتخطي والتحرك الدائم الى الأمام ، وذلك حتى آخر حياته . . . سواء في العزلة ، أو في الشك ، أو في الصلاة . فكان على هذه الأرض « سائحاً » يسعى نحو المسيح ويتطلّع إلى يوم لقائه .

٣ ـ أما الطابع الذي طبع نسكه وسيرته فهو **طابع الجهاد والحرب** : صراع قاسٍ ضد الأهواء وضد الذات وضد الشيطان . . . في امانة وشجاعة وصبر . كل أزمة ومحنة يعقبها تقدم ونمو . . . حتى أنه قال ان التجارب هي طريق الخلاص وبدونها لا يخلص أحد . . . إذ بها يتدرب الإنسان على ضبط الذات ، إلى أن يصير الكيان كله طيعاً للروح . [2]

---

١ ـ « التعلّق » بالمسيح أهمّ من « الأعمال » في سبيل المسيح . كان أنطونيوس « يتنفّس » المسيح ، ولذا كان إيمانه إيماناً حياً عاملاً . . . وعندما سأله أمّون « لماذا شهرتك أوسع من شهرتي مع أن أتعابي أكثر من اتعابك » أجاب : « لأني أحب الله أكثر منك ! » .

٢ ـ علماً بأنه ليس على الأرض من انتصار نهائي . ولذا ينبغي توقع التجربة كل حين . . . حتى آخر العمر . . . ولكن كل تجربة هي « فصحية » نخوض فيها « الموت » ونذوق القيامة .

٤ ـ وأما الروح الذي كان يخوض به الحرب فروح **الثقة والقوة والفرح** : فالمسيح الذي آمن به قد غلب الشيطان وأشهره وسحقه ، وهو باسم يسوع يحرقه كما بنار ، والفضيلة هي فينا بالطبيعة فلا تحتاج لتتكوّن إلاّ إلى إرادتنا ، ونحن يجب أن نفرح بأننا مخلّصون وبأن الرب معنا . . . ولذا كان أنطونيوس على الدوام متّسماً بالإتزان والهدوء والسرور ، وقد خرج من عزلةٍ دامت عشرين سنة ووجهه يشرق بالبشر والسلام ، وكذلك توفي ووجهه طافح بالفرح .[1]

٥ ـ ومن المقومات الرئيسية للإلتصاق بالرب : **العزلة** ، لأن الإنسان الداخلي لا يُبنى إلاّ في كور العزلة ، ولأنه يجب أن نقهر الشيطان في أنفسنا أولاً ، متفرّغين لهذا الأمر ، ولأن أنطونيوس لو لم يصبر على مشقات العزلة وأهوالها لما استحق رؤية المسيح وما تبعها من نِعم ، ولأن الإنفصال عن كل شيء طلباً للمسيح يعكس توق النفس إلى المطلق . . . ولذا نرى أنطونيوس في طلبه لله يزيد في عزلته ، مرحلة بعد

---

١ ـ وهذا اليقين والفرح بالرب ينمّ عن تواضع عميق : كان أنطونيوس يعرف أنه لا شيء ، لأن المسيح عنده هو كل شيء . وكان يصف نفسه إزاء هجمات الشياطين بأنه أضعف من أن يقاوم أصغرهم ، ولكنه كان يعرف أن لا قدرة للشيطان على الذين لا يتبعونه .

مرحلة ، ويعود إليها بأكثر شغف بعد كل مهمة يقوم بها بين الناس ، وذلك حتى آخر حياته .

٦ ـ وكان جهد أنطونيوس في عزلته ونسكه منصبّاً على اليقظة والتحرر من الغفلة : الغفلة التي تلهو وتسهو عن ذكر الله . فأضعف « الوعي الأسفل » المتجه فينا نحو الأمور الدنيا ، وأيقظ وشحذ « الوعي الأعلى » الذي يحسّ بحضرة الله [١] . وبهذه اليقظة الداخلية تحرّر من سائر الأفكار والتصورات بل صار رجل صلاة ، رجل صلاة إلى الحد الأقصى ، حتى أنه كان يصلّي ولا يعي انه يصلّي .

٧ ـ وتجسّدت ثمار حياة أنطونيوس الروحية في الأبوّة الروحية : لقد اقتفى آثار المسيح حتى تشبّه به وصار مسكناً لروحه القدوس [٢] . فتجلّ ذلك في محبته للناس القاصدين

---

١ ـ كان الكون عنده ككتاب مفتوح يقرأ فيه مجد الله . . وكان يطالع الكتاب مطالعة بطيئة هادئة « اجترارية » و« تطبيقية » بمثابة حوار مع الله . . كما كان يمارس الصوم والسهر والنوم على الحضيض ، وسائر أتعاب النسك لاقتناء ذلك « الصحو » الروحي وصونه .

٢ ـ اجتاح الروح فيه كل قوى العدو . . فاستطاع ان يصير « أباً » روحياً لانه وُلد هو من الروح . . وحرص على أن يحتفظ بهذه « الإلفة » مع الله بالرجوع دوماً إلى عزلته ، صائناً نفسه من الغرور . . ـ على غرار السمك الذي لا يعيش خارج الماء كذلك الراهب والعزلة . . ـ ومع ذلك لم يتردد في النزول إلى الإسكندرية عندما طلب منه الأساقفة ذلك لمساندة الإيمان القويم ضد بدعة الآريوسيين .

إياه وتحننه عليهم وشفائه لأمراضهم وإرشاده إياهم في طريق القداسة . فأحبّوه حباً جماً وتجمّعوا حوله واتخذوه لهم أباً . فكان أباً للرهبان أجمعين ولا يزال نبراس الحياة الرهبانية (بل الحياة المسيحية) لجميع الأجيال . . .

في ضوء ما تقدم ننتقل إلى التعليق على أقوال[1] أنطونيوس الكبير الثماني والثلاثين.

---

١ ـ كتبت أقوال انطونيوس باللغة القبطية الصعيدية ، وترجمت للمرة الأولى الى العربية عام ١٢٧٠ (أنظر كتاب «المرجع في قواعد اللغة القبطية»، مطبوعات جمعية مار مينا العجائبي بالإسكندرية عام ١٩٦٩ صفحة ٢٨) . أما صيغة النصّ التالي فهي لنا .

شرح أقوال القديس أنطونيوس الكبير

القول الأول

فيما كان أبّا[1] أنطونيوس ساكناً في البرية انتابه الملل والضجر والأفكار القاتمة فقال لله : «يا رب أريد أن أخلص ولكن الأفكار لا تتركني، فما العمل في ضيقي؟ كيف أخلص؟». وبعد قليل قام ليخرج، فرأى رجلاً مثله، جالساً يعمل في ضفر الحبال ، ثم ينهض من عمله ليصلّي ثم يعود ويضفر من جديد، ثم يعود للصلاة . وكان هذا ملاك الرب أرسله لإرشاده ووقايته . ثم سمع أنطونيوس الملاك يقول : « اعمل هكذا فتخلص » . فلمّا سمع هذا الكلام فرح جداً وتشجّع ، وعمل بما سمع فخلص .

---

١ - « أبّا » لفظة سريانية من أصل عبري ، بمعنى « أب » وقد أدخلها بولس الرسول إلى اللغة اليونانية: «أبّا ، أيها الآب » (غلا ٤ : ٧ و رو ٨ : ١٥) ، ووردت على لسان يسوع في بستان الزيتون : « أبّا ، أبتاه » (مر ١٤ : ٣٦) . وتبنّاها التقليد الرهباني القديم لقباً للشيوخ من الرهبان . وكان الرهبان إذ ذاك يعون أن «من الآب كل أبوّة في السماء والأرض » (أفسس ٣ : ١٥) ، حتى قال أحدهم أنه لا يجوز لأحد أن يعظ الآخرين قبل أن يقتني محبة الآب للناس.

إزاء داء الملل الذي ينخر العمر ويلقي في الفراغ ، لا بد أن يكون في هذه الرؤية مغزى مهم يوضح موقف الملتزمين بعمل الخلاص ، أي بالنتيجة موقف كل حياتنا في الله .

اننا نجد أنطونيوس هنا ، نيابةً عنّا ، مطروحاً في عمق « القضية » ، يعاني من مشكلة الضجر في ملئها ، منحدراً إلى القعر ، إلى الهاوية (كيف أخلص ؟) ويقول في نهاية أولى كلماته كلمةً رئيسية وخطيرة وقوية : الضجر أو الملل (باليونانيــة akedia) كلمة تعني في الأدب الرهباني حالة كيانية من القرف الجوهري تجاه كل شيء ، تجاه كل جهاد وكل حقيقة إيمانية، القرف من الحياة عينها، حالة من الإسترخاء الكلي يسمّى أيضاً «شيطان نصف النهار» وهي ساعة الإلهPan ، إله الطبيعة الراكدة عند الظهيرة في جمود وخبل. وأنطونيوس في هذه الحالة يختبر القلق الذي يسود هذا الدهر، القلق الذي يختلف عن الخوف. فالخوف، الذي يفضله بكثير، إنما هو خوف من شيء ما، أما القلق المبهم فهو بدون «موضوع». انها خبرة «العدم» الذي فينا، نشعر بأننا مخلوقون من العدم وأنه ليس لنا وجود أو قوام من أنفسنا، وبالنتيجة أنه ليس لنا قيام إلاّ بالله[1] . . . كل هذا

---

[1] - قلق الإنسان مثلث الأنواع ، فهو إما القلق الناتج عن الشعور بالذنب ، أو القلق تجاه الموت والإنحلال الكلي ، أو القلق المبهم الأحمق الخالي من أي محتوى .

معطى لنا في هذه الأسطر القليلة . انها خبرة الإنسان الاساسية لعدمه يحسّ المرء فيه بأن الإنسان ليس شيئاً في حد ذاته .

وفي هذا الخضمّ يسأل أنطونيوس الله كيف يخلص . من سؤاله نتبيّن ان قلقه يتخذ شكل بلبلة وتشويش في الأفكار : « الأفكار لا تتركني » . أفكارنا هي التي تدور بنا وتلاحقنا لتهلكنا .

ثم ينهض أنطونيوس ويخرج إلى خارج فيعاين « رجلاً مثله » : هذا يعني انه انتفض و« قام » من ذاته ، فرأى ذاته أمامه أي « وعى » ذاته وبالتالي تحرّر منها . وهذا ما يجب أن نعمله جميعاً . عندما أعي ذاتي واضعاً بعداً و« مسافة » بيني وبين نفسي يكون هذا لي بدء الخلاص إذ لا أعود أسيراً لذاتي ضائعاً وغارقاً فيها .

عند ذاك يتلقى أنطونيوس الجواب بصدد محنته ، وهو جواب عجيب في البساطة والقوة : « إعمل هكذا فتخلص » . أولاً ، إعمل ، اعمل عملاً ما ولو أبسط الأعمال وأكثرها اتضاعاً (كان الملاك يجدل حبلاً) ، ففي ذلك تجد التركيز وضبط الذات وتنجو من الضياع . ان صورة ذاته التي رآها أنطونيوس أمامه تعمل في ضفر الخوص

كانت بمثابة صورة لتجمّع الذات وتركيزها [1] . فالعمل الثابت هو مثل صخرة نركن إليها في وسط اللجة فنصمد. ثانياً اعمل و صلّ، جاعلاً لك إيقاعاً ما بين العمل والصلاة . ففي بساطة هذا الإيقاع يكمن سرّ القوة والخلاص في الرب. ان الذين لا «يدخلون» في إيقاع الصلاة والعمل يبقون خارج سرّ تلك القوة. فينبغي أن نتبنّى هذا الإيقاع مدى حياتنا ونبقيها مركّزة عليه : تلك هي صورة الخلاص الذي تقبّله أنطونيوس في بداية مسيرته . [2]

القول الثاني

كان أبّا أنطونيوس يسبر يوماً عمق أحكام الله فسأله : « يا رب لماذا يموت البعض في ريعان الشباب ويبلغ آخرون منتهى الشيخوخة ؟ . . . ولماذا يوجد فقراء وأغنياء ؟ . . . ولماذا نرى أشراراً يثرون وأبراراً يفتقرون ؟ . . . » وإذا بصوت يجيبه : « أنطونيوس اهتمّ بنفسك . انها أحكام الله ولا تناسبك معرفتها ».

---

١ - في المحن إجمالا تكون هناك نقطة بسيطة ولكنها محورية توجه كل شيء : « النقطة التي تولّد الدائرة » ، والتي إذا ما عولجت تتلاشى معها المشكلة كلها .

٢ - ولكن قوله في نهاية مسيرته : « أنا لا أخاف الله لأني أحبه » (القول ٣٢) فهو الجواب الأخير والنهائي ، الكلمة الفصل : إذ في محبتنا لله تكمن الحياة حقاً. فلا موت من بعد ولا عدم ولا خوف ولا قلق. . . وتلك المحبة هي التي تسند وتدعم الصلاة والعمل طيلة المسير .

اننا جميعاً نميل إلى فحص أحكام الله والإهتمام بأموره(!) هاربين من الإهتمام بأنفسنا . فيكون هذا مدعاةً لقلق آخر ينتابنا وللهوٍ آخر فوق كل ما يلهينا عن العمل لإصلاح ذواتنا . فجواب الله في هذا الصدد جواب قوي : يا فلان اهتم بنفسك . . . انها دعوة للإهتمام بالواقع لا بالنظريات ، إلى الإهتمام بأنفسنا لكي نتبنّى قصد الله المتعلّق بنا ، فندخل في مسرى تحقيقه في عمرنا كما هو مطلوب من كلٍ منّا .

القول الثالث

سأل أحدهم أبّا أنطونيوس قائلاً : «ماذا عليّ أن أحفظ لأرضي الله؟» فاجاب؛ «احفظ ما أنا موصيك به : أينما ذهبت فليكن الله نصب عينيك . ومهما عملت فليكن لديك على عملك شاهد من الكتاب المقدس . وحيثما أقمت فلا تنتقل من مكانك بسهولة . احفظ هذه الثلاث تخلص» .

يجيب أنطونيوس بوصايا ثلاث وذلك في نوع من ارتباط تسلسلي مع القول السابق .

الوصية الأولى ـ « أينما ذهبت فليكن الله دائماً نصب عينيك » ـ تعني أولاً أن نعيش في حضرة الله ، أي أن يكون موقفنا الداخلي موقف صلاة ، ان نكون دائماً في مناخ

صلاة ، في حالة صلاة . انه لأمر واسع شامل . . . ان لا ننسى ان اللـه هو « الوسـط » حيث نحيا ، وأن يكون هذا شعوراً داخلياً أكثر منه فكراً عقلياً . فنعطى مقابله نعمة هي جواب الله ، هي حضور الله .

وتعني ثانياً أن نذكر الله ، أن يتّجه ذكرنا نحو الله لا نحو الماضي (أنظر القول السادس) . ان نذكر اللـه أمـر مهـمّ جداً . فإذا انعـكس ذكرنـا نحـو الماضي امتـدّ ماضينـا إلى حاضرنا وقام مقامه وهـذا أمـر رديء جداً . ان لفظـة ذكر باليونـانية (anamnesis) مشتقـة من فعـل meno ومعنـاه بقـي ، حلّ ، سكن . فذكر الماضي (أو غيره) يحضره لدينـا ويبقيه معنـا عبئـاً ثقيلاً وعلّـة حزن . «أنسى ما وراء و امتدّ إلى ما هو قدّام» يقول بولس الرسول (فيليبي ٣ : ١٣) . فيجـب أن نمتـدّ إلى الأمـام، في نضـارة وحـريّة دائمـة و ان لا يكون شيء إطلاقـاً موجود بالنسبة لنا سوى الله ، في فرح كفرح الخطوبة والعرس ، في حالة بداية دائمة وتجدد دائم ، أحراراً من كل ثقـل . ان كل ما فعلناه أو جرى معنا قد عبر وانتهـى . ولهذا يقـول الآباء ان المعمودية الثـانية (معمـودية التوبـة) أعظـم من الأولى قاصدين بذلك من حيث المفعول ، إذ أننا حينما نتوب وكلما نتوب نُعتق من عبء الماضي .

وتعني ثالثاً ان تفعل حضرة الله الدائمة في حياتنا بصورة يقين: أن أتيقن أن الله هو هنا ، واني سأعاينه بعد الموت ، وأن هذا أمر أكيد ، فأبني حياتي وأنميها على أساس ثقة وأمان ، على أساس من صخر هو بالنتيجة الايمان .

أمّا الوصيّة الثانية ـ « لا تنتقل بسهولة » ـ فهي أولاً من باب الفطنة والمنطق السليم كيلا نلتهي هنا وهناك ، وهو الوجه الأفقي للنصيحة . وثانياً لكي نتعمّق في حياتنا . والمقصود هنا ليس عدم السفر الخارجي بقدر ما هو التعمّق والتوغّل أكثر فأكثر في واقع تمسكنا بالله : هذا الواقع يجب أن أتبنّاه حقاً ، أي أن أبني نفسي أكثر فأكثر ككائن ثابت راسخ في العمق في ذلك اليقين المتزايد قوة وضماناً بحضور الله لي وحضوري لله . فإذا ما التزمنا عملياً ان يكون الله نصب أعيننا حيثما توجهنا يصير هو في داخلنا حضرة دائمة وأساس ثباتٍ داخلي لا نعود معه نتزعزع .

وهكذا نجد هنا أيضاً جواباً لمشكلة القلق . فأنطونيوس الكبير يظهر لنا كإنسان قد تغلّب على القلق والميتوتة والعدم ، وترك لنا ، مع زملائه وأبنائه من « شهداء » الكنيسة الأولين ، شهادته لتلك المسيرة التي تؤول إلى انقراض الخوف والقلق . لقد اختبر الرب يسوع عنّا الموت

والقيامة أولاً . وها أنطونيوس الذي سلك في إثره يصعد من قعر القلق ليقول لنا اعملوا كذا وكذا فتستريحوا ، ثم يقول في نهاية مسيرته : « أنا لا أخاف الله لأني أحبّه ... » (القول ٣٢) .

عجيبة تلك المسيرة ، مسيرة القديسين ، التي خلاصتها « المحبة تطرد الخوف »، أي أن مفهوم الله الصحيح يطرد المفهوم الخاطىء في أذهان الناس .

القول الرابع والخامس والسادس

٤ ـ قال أبّا أنطونيوس لأبّا بيمين : « العمل الكبير هو أن يعترف الإنسان بذنبه أمام الله ويتوقع التجربة حتى النفس الأخير ».

٥ ـ وقال أيضاً : « لا يستطيع أحد أن يدخل ملكوت السموات بدون التجارب» و أردف مؤكداً: «إرفع التجارب فلا يخلص أحد».

٦ ـ سأل أبّا بموا أبّا أنطونيوس قائلاً : « ماذا يجب عليّ أن أعمل ؟ » فأجابه : « لا تثق ببرّك ولا تتحسّر على ما عبر ، و اضبط لسانك و بطنك».

هذه الأقوال الثلاثة متصلة المعاني وهي تفسّر ما سبقها .

أولاً أن أنبل ما يعمله الإنسان ، أو « العمل العظيم » للإنسان ، ليس من الأعمال العادية السهلة ، إنما هو الذي يعبّر به الإنسان عن نفسه ، « يقول » به نفسه ، وهذا أمر صعب وطويل الأمد ، به يبلغ المرء دعوته . هذا العمل هو **أن يقرّ الإنسان بذنبه أمام الله ويتوقع التجارب إلى النهاية .** لنلاحظ أن بين هذين الأمرين رباطاً خفياً ، أو أن في ذلك موقفاً واحداً ذا وجهين ، أعني ان عدم توقع التجربة ورفضها يؤدي إلى رفض الإقرار بالذنب ، وبالعكس رفض الإقرار بالذنب يعني عدم تبيّن التجربة وعدم رؤيتها . في حين أن معرفة الخطأ وتبيّنه يعني ضبط الذات تجاهه والتغلب عليه . وإلاّ فنحن في هروب من الخطيئة ومن أنفسنا ، دالّين بذلك على أننا أضعف من أن نواجهها . حين أواجه ذاتي أتطابق مع ذاتي و أتوحد، أكون أنا ما أنا أمام الله ، أي في نور يقصي الخطيئة ويلاشيها . أقف كما أنا أمام الله الذي يمحي كل خطيئة . وهذه الوقفة ينبغي أن تكون جواب الإنسان الأول أمام الله .

لماذا أمام الله؟ لأنه بدون ذلك ، بدون الإعتراف لله الذي هو أعظم من خطايانا، بدون الوقوف أمامه وهو صخرة الأمان وواقع الضمان للأنسان نكون عرضة للتوهّم والإنخداع والضلال، وبالنتيجة لليأس. ان أعظم قصيدة

توبة أنشدها الإنسان ، أعني قانون التوبة للقديس إندراوس الكريتي ، الذي نرتله أثناء الصوم الكبير ، يليه مباشرة في صلاة النوم الكبرى نشيد « لأن الله معنا » وهو نشيد ثقة وفرح وغلبة للذين أقرّوا بذنوبهم : لأن الله معنا . . .

أما توقّع التجربة حتى النفس الأخير فنكتشف ضرورته بعد العمل الأول . حين نعتاد أن نقرّ دائماً بخطيئتنا ونحملها الى الله نكتشف أن التجربة لاصقة بالإنسان . بكل إنسان ولكن بصورة خاصة بالإنسان المسؤول ، الحيّ بالروح . أما الإنسان غير الملتزم وغير المسؤول فتزدريه التجربة وتهمله . ما هي التجربة ؟ ان أنطونيوس حين يذكر التجربة يتكلم عن خبرته الروحية من أجلنا كلنا . وقد رأينا عنده معنى تجربة الضجر . فالتجربة في مفهومه هي كل ما يمتحن الإنسان ويختبره . وفي ضوء ذلك نحن نجرَّب على الدوام . الإنسان لا ينفك يُختبر ويختبر ذاته كل العمر . لا يأتي يوم يستطيع فيه القول « قد انتهيت » . . . وإلاّ تكون النهاية له .

ولذا نجد أبّا أنطونيوس يقول : « بدون التجارب لا يخلص أحد » ، وانه لا بدّ منها « لدخول ملكوت

السموات » . ان من يجرِّب يضطرّ إلى الرد على التجربة ، يقاوم، يجاوب، فيحيا إيمانه و التزامه. وهذا بديهي. ولكن على صعيد أعمق التجربة تقودنا إلى الحقيقة ، إلى حقيقة أنفسنا ومعرفتها . بدون التجربة نبقى كما نحن مغلقاً علينا في « صدفتنا » الصغيرة في حين نظن أننا في مكان واسع لا حدود له ! لا نعرف حدودنا. . . إذاً التجربة طريق إلى الحقيقة، بدونها لا ندخل ملكوت السموات. و أنطونيوس بالتالي ، بقوله هذا ، قد تحكّم بروح المسيح الذي أتى ليفتح لنا باب الملكوت : انه لاهوت التجربة كما عاشها المسيح بصورة سرية وفي كثافة فريدة، وذلك في البرية أيضاً حيث أمضى أربعين يوماً بعد المعمودية منقاداً من الروح القدس (مر ١ : ١٢) :

التجربة تظهر هنا في قصد الله كحالة مرحلية من حالات النفس يدفعنا الروح إليها ، ونتبيّن في طياتها ارتباطاً بينها وبين فصح الرب المقبل : « ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين » (لو ٤ : ١٣) ولكنه عاد إليه لما حانت ساعة الآلام والموت : « الآن نفسي قد اضطربت . . . أيها الآب نجّني من هذه الساعة » (يوحنا ١٢ : ٢٤ - ٣٣) ، فدخل إبليس في يهوذا :«ولما أخذ اللقمة خرج للوقت ، وكان ليلاً » (يو ١٣ : ٣٠) .

ان تجربة الرب يسوع في البرية تناولت ثلاث نواحٍ : الخبز والسلطان والقوة ، وكلها تقوم كحاجز في طريق الملكوت ، كعلامات في الطريق ينبغي أن نعرفها ونتخطاها .

أمّا الخبز فيمثل حاجة الإنسان بصورة عامة ، حاجته وجوعه ، إلى الشهوة ، إلى الطعام يأتيه من الخارج . لا بدّ من التعرّض لتجربة الخبز. فيردّ المسيح عليها بطلب الكلمة: « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله،» أي أن الله ليس واسطة من أجل حياة الإنسان (حتى يحوّل له الحجارة خبزاً) ، بل الإنسان هو في يدي الله ، وحياته تنبع من ينبوع واحد هو الله . الإنسان ، إنسان الايمان، يقف أمام الله ، ويحيا منه. ان كيانه مرتبط بالله ، والله هو الجواب لكل جوع الإنسان ، حتى لجوعه الأكثر مادّية . ولهذا يختار المسيح الله أولاً ، ضدّ بداهة ضرورة الخبز عند الناس.

أمّا تجربة السلطان والاستيلاء على ممالك الأرض ، فتعبّر عن رغبة الإنسان في « الوصول »، في النجاح والسلطة والمجد . ولكن هذا كله يأتيه من خلال إبليس ، يمرّ بابليس . أمّا الله فيبعث ملاكه عزرائيل عند الموت

فيعطي الناس عيوناً أخرى جديدة ليروا الحقيقة الأخرى الجديدة [١] . ان إبليس يظهر بالذات في الحالات القصوى فقط ليعرض على المؤمن السلطان والمجد (كما جرى للمسيح ولأنطونيوس من بعده) ، ولكن تأتي أوقات في حياة كل إنسان يجب عليه فيها أن يختار بين المجد العالمي وبين الله . فهذه التجربة إذاً تحول بيننا وبين الملكوت . وينبغي ان نعرف ان ملكوت الإنسان على الأرض ليس التسلط على الآخرين بل خدمة الله فيهم .

أمّا التجربة الثالثة فهي تجربة القوة ، تجربة « الماسيوية » (« ان كنت ابن الله فارمِ بنفسك إلى أسفل . . ») ، أي أن نفتش عن المسيح في « علامات » القوة والظفر. فيجيب الرب يسوع : «لا تجرِّب الرب إلهك» ، إذ ليس الله في المظاهر الباهرة. ونلاحظ ان فكرة الملكوت الحقيقي هي في

١- وهذا ما حدث لدوستويفسكي كما يعلّق عليه تشيكوف عطفاً على حديث إسلامي : كان دوستويفسكي قد حكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص لاشتراكه في مؤامرة لقتل الامبراطور ، وجاء الجند في اليوم المحدّد لتنفيذ الحكم وربطوه وأغمضوا عينيه وتأهّبوا للرمي . ولكن في اللحظة الأخيرة حضر مسرعاً رسول من لدن السلطة يقول : توقفوا فإن الإمبراطور قد عفا عن المجرم وأبدل حكم الإعدام بالنفي إلى سيبيريا . ولكنَ دوستويفسكي كان على عتبة الموت وقد نال العينين الجديدتين والرؤية الجديدة ، ولم يسحبها منه ملاك الله حين عاش ، فكتب ما كتب من روائع وشهد للإيمان بالله .

الميزان في كلٍ من التجارب الثلاث على السواء : الخبز الأرضي الفاني مقابل خبز الحياة النازل من السماء أي كلمة الله في الإفخارستيا ـ ممالك الأرض والتسلط مقابل ملكوت الخدمة (عندما أراد اليهود أن يختطفوا يسوع ليجعلوه ملكاً توارى عنهم . . .) ـ إله القوة والأبهّة والظفر الفاقع» (ماسيا يرمي بنفسه من فوق الهيكل فيحفظه ملائكته) وهو مفهوم اليهود لله حتى اليوم، مقابل الإله المصلوب، الفقير، الخفي . . . .

إذاً بدون التجربة لا نستطيع أن ندخل ملكوت الله . بتجربة الملكوت الباطل نتبيّن الملكوت الحق. بالتجربة نتعمّق ونعمّق مفهومنا لله. فإمّا أن نستسلم للتجربة ونذوق الفساد والموت أو نقاومها فنختبر الله وملكوته. ان جوهر التجربة في الحقيقة جوهر فصحي. التجربة فصح نعبر به، بجهادنا ونعمته تعالى، من الموت ـ موت الكسل والجبن والتعب والخطيئة ـ إلى القيامة ، حين نختار الله على كل شيء آخر ، وفي اللحظة التي نختار فيها الله .

أمّا عدم الوثوق ببرّنا (القول السادس) ـ أياً كان هذا البرّ : خارجياً أو داخلياً ، فردياً أو جماعياً ، إلهياً أو بشرياً. . . ـ فيعني حالة مصالحة مع الآخرين ومع الذات

(إذ نكون حينذاك مصالحين مع الله) وذلك مصالحة عملية فاعلة (لا مبدئية نظرية) . عندما أثق ببرّي وأتوقف عنده أحدّ ذاتي فيه ، داخل حدوده ، أغلق على ذاتي في شبه سجن (و انفصل عن الآخرين). ان براً واحداً يحررني، هو الذي يخرجني من ذاتي ويجعلني على الدوام حراً، فرحاً ، خفيفاً ، بدون عبء. أمّا البرّ « الأخلاقي » الذي يجعلني أراقب نفسي بصورة دقيقة وتفصيلية في شبه وسواس ، فهو برّ خاطىء . ان الرب يسوع قد دعانا إلى الحرّية والجرأة ، لأنه دعانا إلى الثقة بدالة ببرّ الآب ، لا ببرّنا . أمّا برنا فسيّان ايّاً كان ، إذ لا قيمة له البتة . فلا نهتمنّ إذاً بذواتنا كثيراً .

وأما عدم الحزن على أمر قد عبر ومضى فلأن الماضي يشكل عبئاً باطلاً لنا . ومن هو في الله لا يعيش في الماضي ، ولا ماضي له . بل يستمدّ من الله قوة تجديد مطرد هي فرحه . وهو لا يستطيع أن يعيش بدون هذا التجدد الدائم . وكأن نفسي والعالم يتقابلان في كفتّي الميزان ، فينبغي أن يزن حضور الله في حياتي وحبّي له أكثر مما يزن العالم ، وأن يرجّح الحاضر على الماضي . وهذا يتم بقوة من العلاء . إذا لم نتجدد كل يوم فالماضي يمحقنا . بمجرّد أن نكون بطّالين يعود الماضي إلى ذهننا بتفاصيله الدقيقة كدنيا

و همّ وخيال تسجننا وترجّح كفة العالـم في ميزان حياتنا. فلا بدّ من تخطّي الماضي على الدوام . لا نخافنّ من أي ألم في جهادنا فإنه يؤول إلى الفرج . كان أيوب الصدّيق يوازن ما بين آلامه وكل رمل البحر فيقـول كم يزيد ثقـل آلامـي عليه ! . وكان أصحابه يعيّرونه على صبره بكلام فلسفي « لاهوتي » . ولكن الله في النتيجة يظهر له ويزكّيه . فلا نجزعنّ إذاً من الألم والضيق . اننا به نجتاز حدوداً لا بد من اجتيازها، نتجاوز أنفسنا، «فنقسر» الله أن يأتي إلينا.

« فلا تحزن لشيء قد عبر ، هذا الحزن بلاء » . ويتابع أنطونيوس قوله : « **بل املك زمام بطنك ولسانـك** » : انهما مهمّتان أساسيتان تتناولان البطن ، أي الشهوة بصورة عامة ، واللسان أي الفكر المرتبط بالنطـق ، فينبغـي ضبـط البطـن واللسـان والتسلـط عليهما وتأمـين عدم تشـتيتهما وشرودهما .

القول السابع والثامن والتاسع

٧ ـ قال أبّا أنطونيوس : « رأيت فخاخ العدو منبثة في الأرض كلها فقلت متنهـداً : « تُـرى من يسلـم منهـا ؟ » فسمعت صوتاً يجيب : « المتواضعون » .

٨ ـ وقال أيضاً : « لقد أفنى البعض أجسادهم بالنسك ولكنهم ، لعدم التّمييز ، ظلّوا بعيدين عن الله » .

٩ ـ وقال أيضاً : « ان الحياة والموت يتعلّقان بالقريب . فإننا إن ربحنا أخانا ربحنا الله، و ان أعثرناه أخطأنا إلى المسيح» .

إننا نتابع الاستماع الى أنطونيوس يعطي كلمته، ولكنها الآن اكثر واقعية. فبينما كان يصف لنا عمل الإنسان الكبير وهو مجموع الفكر، نسمعه الآن يجعل ذلك العمل الكبير محققاً في امور قريبة يومية. على هذه الصورة يتم تحقيق قصد الله عملياً في حياة الانسان، أي تحقيق الانسان وتحقيق الإنسان والله في آن واحد لأن قصد الله المعلن والمسلّم للانسان لا ينفصل عن الله نفسه.

لنحاول هنا أيضاً الدخول إلى روح هذا الكلام، الذي يدعم المؤمن ويقوّمه .

القول السابع يعبّر أولاً عن تصوّر خيالي يدلّ على انطباع فيه الكثير من التشاؤم : فخاخ وعدوّ وشبكة مبثوثة على كل الأرض ومشيئة خبيثة معادية للإنسان . فينبغي أن لا نتسرّع في تكوين مثل هذا الإنطباع .

ان أنطونيوس يعبّر عن انطباعه الشخصي وعن روح الله معاً ، ويتخذ قوله شكل محادثة حتى في منطوق الكلام .

ان فخاخ العدو منبسطة على الأرض لإقامة العوائق في وجه الإنسان لأجل عرقلته . انها فكرة منع الإنسان من المسير في طريق قصد الله ، فكرة تقييد الإنسان وأسره واستعباده والإستيلاء عليه . وذلك كأنه بشكل دقيق جداً . انها خبرة من خبرات هذا العصر تسمّى « الهمّ ». الإنسان المعاصر في حالة همّ : إنسان محدود ، في وضع محدود ، وهو ومحدوديته في حالة همّ دائم . والهمّ هذا ليس ظرفياً بل أساسي ، هو همّ البقاء . ولكنه أيضاً بمثابة ختم يختم النفس ويضيّقها ويخنقها ويأسرها . الإنسان هذا ينوء تحت همّه ويفقد حريته . ولذا فإن ترتيلة الشاروبيكم في القداس الإلهي تحثّنا على « طرح كل همّ او اهتمام دنيوي » (merymna = همّ) . فالهمّ هو الذي يحيط بنا كشبكة ، مهدداً بإنقاص حريتنا بل كياننا . ولذا يسأل أنطونيوس وهو يتنهّد (وكأن طبيعتنا البشرية تتنهّد) : من يسلم ويخلص ؟

ليس كل اهتمام دنيوي فاسداً . ولكن الحياة العصرية تخلق الهموم خلقاً ، وأكثرها هموم لا ضرورة لها في

الأساس . « الحضارة الإستهلاكية » اليوم تبتدع الهموم لتتيح للآلة ان تدور . وليس من ورائها سوى التجارة والدعاية وما إلى ذلك . انه همّ إصطناعي ، وعبودية [1] .

أمّا الجواب الذي يتلقاه أنطونيوس فهو أساسي وجوهري ونهائي : المتواضعون يسلمون ويخلصون . فما هو التواضع ؟ اننا لا نستطيع ان نصفه مباشرة أو مواجهة ولا ننوي ذلك. فالتواضع هو غنى حياة الله نفسها تزدهر فينا وتحوّلنا الى كائن جديد هو كائن الله . فلنحاول أن نقربها في الرب يسوع على ضؤ روح الله .

قد تكون لفظة تواضع بالفرنسية (humilité) مشتقة من لفظة humus باللاتينية التي تعني أرضاً عميقة وخصبة ، صالحة للفلاحة والزراعة . ففي التواضع فكرة العمق ، فكرة النزول الى أسفل ، إلى ما تحت شبكة الفخاخ الممتدة على الأرض . ليس المتواضع من يقتبل الحياة سطحياً ، على مستوى الهموم التي تُخرج الإنسان إلى التيه وتبعده عن قصد الله فيه . ومن جهة ثانية لا يستطيع أن

---

(١) راجع «الايمان ومجتمع الاستهلاك» لكوستي بندلي، سلسلة «الانجيل على دروب العصر»، رقم ٢ ، منشورات النور، ١٩٨٢ (الناشر).

نكون متضعاً من يسلك منهجاً نسكياً يفوقه ويفوق طاقته .
« يا رب ان قلبي لم يترفع و ان عيني لم تستعليا ولم أعالج الأمور العظيمة ولا القضايا العجيبة مما هو فوق طاقتي » (المزمور ١٣٠ : ١) . فالمتضع إذاً هو من ينحدر منسحقاً إلى مّا تحت الهموم الأفقية ولا ينجرف في أوهام ارتفاع غير واقعي .

أمّا ثمر الاتضاع فمزدوج : أولاً عدم الهمّ وثانياً الثقة .
ولكن ان كنّا بالاتضاع نتحرر من الهموم ونكون في حالة من الثقة والإطمئنان فلأن لنا سنداً ودعماً أقوى وأرسخ من أنفسنا . ان الذات الإنسانية عرضة بطبيعتها للهموم وفريسة لها . أمّا المتضعون فهم الذين يشعرون بالله الحيّ فيهم ويتشددون به . فالثقة الروحية تنجم بالنتيجة عن عدم اكتراث المرء بنفسه : أنا واثق لأني متكل على آخر، لأني أثق بغيري (confiance= se confier en) . المتضع يتخلى عن أي ظهور شخصي ، طالباً لا مجده بل مجداً آخر هو مجد الله على منوال الرب يسوع. اننا نفهم الآن كم أن الخلاص هو سرّ، سرّ إيمان متعذر دون اتضاع المسيح الكلمة المتأنس و انسحاقه، دون ذلك الخروج بل الإفراغ من الذات، إفراغ الله من ذاته ليتخذ صورة عبد. فإذا كان

الإتضاع يفلت من فخاخ العدو ويسلم فلأنه اتضاع بهذا المعنى الأخير النهائي الذي عاشه الرب .

ولكن الاتضاع إذا قربناه أكثر يرينا وجهين آخرين له هما ملح النفس أعني الصبر والوداعة . فالصبر في نوعيته فضيلة عمق كالتواضع ، ونحن لا نستطيع البناء في العمق دون الثقة والإعتماد على الله . الصبر (باليونانية Hypomonia) يعني «من يبقى تحت »، من يدع الأمور تجري فوقه ، لا سيّما كل ما من شأنه أن يقلق أو يثير غضبه . وهكذا يولّد الصبر الوداعة التي هي ثمرة التواضع الثانية. امّا الوداعة، التي طوّبها المسيح ، فهي علامة قوة كبيرة ، حتى في خبرة الحياة اليومية العادية . انفعال المرء يدلّ على ضعفه . حينْ ننفعل لأمور صغيرة نفاجأ بقلة هدوئنا وبرغبتنا الحاضرة أبداً في الردّ على من يزعجنا وفي ان نكون على حق وصواب ، نفاجأ باهتمامنا بالظواهر دون العمق فنستسلم إلى العنف. فالوداعة إذاً تعبّر عن قوة كبيرة ، قوة ثقة النفس اللامبالية بذاتها ، وكأن ذاتها غريبة عنها. ذلك لأن بيني وبين ذاتي يقوم الله وحياة الله فيّ. فلست انا بعد بالدرجة الأولى.

ان الانسانية اليوم تسعى من حيث لا تدري إلى هذا

التجاوز الذاتي بمختلف الطرق ؛ تسعى إلى تخطّي الأنا من خلال سائر الايديولوجيات الفلسفية والتطلّعات العلمية والنزعات الصوفية وغيرها ، وليس هذا كله في الحقيقة إلاّ مظهراً للرغبة في الاتضاع وطريقة له ، أعني طريقة خارجية لتجاوز الذات وصبّه في مجموعة أكبر و أوسع ، يتاح فيها للمرء أن يكون كريماً سخياً يعطي للآخرين . وهذا ما يفسّر مظاهر السخاء العالمي الحديث. ولكن لهذه الطريقة الخارجية حدوداً ، نعود بنتيجتها فنصير عبيداً من جديد ، نؤسر ضمن إطار جديد مهما اتسع . وهذا ما لا يحدث في الاتضاع الداخلي الحقيقي ، **لأنه داخل الاتضاع الحقيقي تقوم صورة الصليب عينه** ، أي اتضاع الله نفسه ، الاتضاع حتى الموت موت الصليب . لقد صلب المسيح الإله بالاتضاع : في وداعة و انسحاق وصبر، في عمق، ولكن أيضاً في قوة : ليس مجرّد الانسحاق اتضاعاً مسيحياً بل جبن . في الاتضاع المسيحي نسيان للذات داخل فعل قوة وليس لسبب الضعف أو الكسر . نتّضع لأن فينا شعلة تلهبنا ، هي حضور نعمة الله ومحبته المضطرمة فينا . الاتضاع هو على شبه الصليب سرّ عطاء الذات بدافع المحبة . « لقد أحبّ الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد . . . ليس من حب أعظم من هذا أن يبذل الإنسان نفسه عن

أحبائـه » (يو ١٥ : ١٣) . ولـذا فمـن يعيش في العالـم لا تختلف حياته عمـن يعيش في البـرية، بمعنـى انـه ينـال البعض في العالـم قوة الخدمـة والعطـاء والبـذل، نعمـة التواضع الإلهي الذي به يسلم الإنسان من شبكة الفخـاخ المنبثة في الأرض ويكون أقوى منها.

القول الثامن تفسير لما سبق : « أفنى البعض أجسادهم بالإمساك ولكنهم لقلـة التمييز ابتعـدوا عن اللـه » . هذا القـول توضيح وتكملـة لما سبـق إذ ان الاتضـاع وعـدم الإكتراث بذواتنا إنما يجـب أن يكون مُسْنـداً إلى انجـذاب أقوى، إلى انجذاب من آخر غيرنا، من الله. وهكذا يستقيم ويسلم من التطرف والخلل.

ان أنطونيوس يتكلم هنا عن النسك وقد كانت ضرورة النسك الشديد في أيامه منسوبة لضرورة سحق الطبيعة ذاتها لاجل تقويمها وتطهيرها من الفساد المستحوذ عليها . كانت مبنية على فهم آخر للإنسـان وللحياة . كان النسـك بمثابـة استقسام لطرد الشياطين . ولذا كان يتّسم بالقسوة . وهـذا لا يعني ان النسك لا يبقى بعداً من أبعاد الإنسان الأساسية في حياته من حيث المبدأ ، ولكن شكله ومداه يجب أن يتغيّر عند الإقتضاء. فإذا تمسكنا بشكل النسك فقط لا نعود نتنسك

نسكاً صحيحاً سليماً لأجل الله بل نتنسك باسم النسك ذاته . مثالاً على ذلك كانت الطبيعة في أيام أنطونيوس لا تزال ملوّثة بشدة بحضرة الشياطين المتسترين فيها ولم يُقْهروا بعد من النسّاك المتوحّدين بل كان يظنّ أنهم يختفون وراء كل شجرة . ولذا كان الرهبان لا يميلون للإنتباه إلى جمال الطبيعة والإنشراح له . وكذلك كان الإستحمام في واقع تلك الأيام مجالاً وفرصة للدعارة لا للنظافة ، ولذا تبنى الرهبان مبدأ عدم الإستحمام . فإذا استمررنا نحن بالنسك على هذه الصورة دون ان نغير الإطار الإنساني والتاريخي اعتباراً فنحن لا نتنسك بصورة سليمة بل نهرب من النسك الملائم والمجدي . . . بناء عليه يجب أن نبحث عن أشكال أخرى للنسك تتفق مع إنسان اليوم ، وإلاّ فعدم الفطنة والتمييز «يبعدنا عن الله» بدل أن يقربنا إليه. وقول أنطونيوس هذا منذ ذلك الحين دليل على أنه رجل حرّ، وحرّ من فضيلته نفسها ومن نسكه ، إذ أن الفضيلة ليست هدفاً بحد ذاتها بل هي علامة لعمل الله فينا ولحضوره في حياتنا .

فالتمييز إذاً ، الذي يتكلم عنه أنطونيوس في هذا القول ، هو تلك الرؤية الروحية السليمة التي تجعلنا نسلك الطريق السويّ الملوكي البعيد عن « أخطار اليمين وأخطار اليسار » والخالي من التطرف في الفضيلة ومن التقصير فيها .

انه رؤية الروح التي تتيح لنا أن نختار كل شيء باعتدال ، وهو الجواب الصحيح الملائم للآن الذي نحن فيه . فالله لا يزال يعمل ولا يزال يعبّر عن مشيئته الآن وهنا.[1] الله حيّ ويجب أن نجيبه الآن إلى ما يطلب منّا الآن . وفي الحقيقة لسنا نحن الذين نجيبه (نحن المتمسكين بالرتابة والتكرار المائت) ، بل روح الله الحيّ الذي يدفعنا الى الأمام . وهكذا تقرن فضيلة التمييز بفضيلة التواضع بهذه القوة المذهلة الهائلة : « أفنوا أجسادهم فابتعدوا عن الله. . . » (بالكبرياء) .

القول التاسع أيضاً مذهل ولا يُتوقع سماعه من فم رائد الحياة الرهبانية التوحّدية المبنية على اعتزال العالم : « ان حياتنا وموتنا يتعلقان بقريبنا ، فإن ربحنا أخانا ربحنا الله و ان شكّكنا أخانا أخطأنا إلى المسيح». ان هذا القول يتوّج الأقوال السابقة بهذه النظرة الكلية والواقعية بالكلية : فالحياة والموت ، أي كل ما يمكن أن يكون ، كل شيء متعلّق بالقريب ويقود إلى القريب .

١ ـ وهذا ما يفسّر « التناقضات » الكثيرة في الظاهر التي نجدها في الكتاب المقدس والآباء : مثلاً قول « طوبى لصانعي السلام » (متى ٥ :٩) يناقضه في الظاهر قول : « لم آتِ لألقي سلاما على الأرض » (متى ١٠ : ٣٤) » .وقول « أكرم أباك وأمك » يتنافى مع قول « ولا يبغض أباه وأمه » (لوقا ١٤ : ٢٦) .

لنحاول ان نفهم ذلك في العمق وحينذاك لن يعود غريباً في فم أبي الرهبان أن القريب يمثّل و يجسّد الطابع الواقعي للمحبة ، فالمحبة دائماً واقعية محسوسة ملموسة . المحبة موجهة إلى شيء معيّن ، إلى موضوع ، إلى القريب الموضوع أمامها ، وليس إلى « فكرة » القريب . ان اتجاه المحبة إلى « فكرة » أو إلى « مفهوم » القريب هو انحراف ، لأني إذ ذاك أحب ذاتي لا الآخر ، أحبّ الأنا فيّ ولا أخرج منه ، بل أكون في حالة وهم فظيع . لكيما أعرف ما إذا كنت عائشاً في المحبة حقيقة لا بالوهم فالعنصر الوحيد والبرهان الوحيد الذي لا يرقى إليه الشك هو القريب الحيّ أمامي . وبسبب ذلك فالمحبة هي دائماً خلاّقة ومبدعة ومجدّدة . ذلك لأن هناك علاقة حية بشخص معيّن يضعني معه كل حين في مواقف دائماً جديدة ، في مواقف تتغير وتتجدّد ، وعليّ ان أواجهها عملياً بالمحبة . نعم ان « القريب » الكبير ، بحسب الخبرة التي عاشها أنطونيوس في هذا القول ، هو من نخطىء إليه بالنتيجة عندما نخطىء إلى الآخرين : هو الله . ولذا نرى الرب يسوع لا يفصل بينهما عندما يقول إن وصيته محبة القريب كالنفس هي كوصية محبة الله من كل النفس . وهذا يعني أن هناك وحدة ولحمة لا تنفصم إطلاقاً بين محبة الله ومحبة القريب .

معجزة المحبة القائمة بيني وبين الآخر وبين الله ، وقد قال الرب : « إذا اجتمع إثنان او ثلاثة باسمي أكون في وسطهم . . . » . أمّا إذا كانت المحبة تتألم وتئن في واقع علاقتنا بالآخرين فهذا ، جزماً ، دليل قاطع على وجود نقص في المحبة بسبب أحد الطرفين : أنا أو القريب . بل أستطيع القول بأني أنا دائماً هو المخطىء في نقصان المحبة . أنا هو المذنب عملياً وذلك بسبب نظرتي للقريب : متى أردنا أن نجعل من الإنسان (الذي يجب ان يكون دائماً مدار حبنا ومصبّ حبنا) شيئاً لا ذاتاً تصبح المحبة صعبة . لأنه ليس بعد من قريب أمامنا ، ليس من « أنا » نتبيّن فيه قريباً ونتحسّسه . وإذا كان هذا وضعنا الدائم مع الآخرين يؤول بنا ذلك الى حالة عصبية مرضية ، نحاول الخروج فيها بالتلهّي والنسيان أو بتشييء الإنسان حولنا ومحاولة التسلط عليه . لأن المحبة في آن واحد توجد وتثار فينا من قبل من نحبّ ، وتخلق من نحب ، تخلق موضوع الحبّ ، أي أني حين أحب فمن أحب يصبح لي عملياً موضوع حب وميدان حب . المحبوب هو القريب الحقيقي ، وهذا كعلاقة وليس بالفكر فقط . أي أني « أخلق » الآخر أمامي في الواقع بتبني صفاته وتبنّيه بجملته ، بقبوله كما هو . أصير معه في وحدة جهاد وصبر وثقة ومصير . وهذا هو البرهان الوحيد لواقع

محبتنا ، لأنه فعل بذل ذاتٍ أمانة لله . هذا هو أفق المحبة ومداها والدافع لها ، هذا تحقيق لله في محبتي للآخر . بهذا محبتي لله تتجسد ، ولهذا يقول أنطونيوس ان ربح القريب هو ربح الله . من يربح الله دون المرور بالقريب (حتى وان كان متوحداً في البرية) ، لا يربح الله . في مجال المحبة يجب أن لا نستعمل المرساة رمزاً للأمانة بل الشراع الذي يتكيّف مع الروح ، الذي يطاوع « ريح » الروح . فالشراع (لا المرساة) هو مبدأ الأمانة في مجال الحركة ، يهبّ الريح ويدفع بالسفينة إلى الأمام إذ يبقى في الإتجاه المناسب لالتقاط الروح .

تلك هي قوة المحبة التي تجعلنا نربح الله والقريب معاً في علاقة خلاّقة معهما .

وهكذا فإن الأقوال الثلاثة الأخيرة التي رأينا فيما تقدّم تلخّص بكلمات ثلاث : إتضاع ، تمييز ، محبة . انها أقوال كثيفة دسمة ، وجامعة متكاملة ، وليست أقوال أنطونيوس التي تتلوها سوى « تطبيق » تفصيلي لوضع الراهب ومواقفه على ضوء ما قيل إلى الآن .

القول العاشر

وقال أيضاً : « كما أن السمك ان بقي مدة خارج الماء يموت ، كذلك الرهبان ان تأخّروا عن قلاليهم أو قضوا وقتهم مع أهل العالم بدّدوا قوّة السكينة فيهم . فعلينا إذاً أن نسرع إلى قلالينا كما يسرع السمك إلى البحر ، لئلاّ بتأخرنا خارجاً ننسى يقظتنا الداخلية » .

يعني هذا القول وجوب الإسراع في العودة الى القلاية حتى لا ننسى صحونا الداخلي.

والمقصود بالقلاية القلاية الحجرية المادية بقدر ما هي تقودنا إلى القلاية الداخلية المعنوية، الى الصحو والإنتباه واليقظة التي فيها نعبّر عن الثمار التي اجتنيناها ـ الاتضاع والتمييز والمحبة ـ ولا نعود نحيد عنها بمفاجأة النسيان والشرود وكل التقلبات التي يتعرّض لها الذهن. هذه التقلّبات لا بدّ منها في الواقع ولكننا بفضلها نحسّ بأن يقظتنا مهدّدة فنبقي في داخلنا مكان النعمة جاهزاً ونبقي اليقظة فيه حارة فاعلة «محرّضة». ان عروس نشيد الأنشاد

تنشد لعريسها: «أنا نائمة ولكن قلبي مستيقظ» (نش ٥: ٢). وهذا ما يجب أن نكون فيه جميعاً، وكأن «نوّاسة» تبقى مضاءة فينا على الدوام لتنير وعينا حين نشعر بأنه مهدد، وتطلب منّا جواباً صريحاً واضحاً عاملاً تجاه كل ما يعرض لنا، وتجعلنا أقوى من كل ظلام ونسيان ليصير كل شيء فينا نوراً.

القول الحادي عشر

وقال أيضاً: ان من يعتزل في البرية ينعتق من حروب ثلاث هي السمع والكلام والنظر، فتبقى عليه حرب واحدة هي حرب الزنى.

هذا لا يعني أن حياة المتوحد هي حياة انكفاء وكسل، ولكن الحرب في العزلة تصير حرباً داخلية. والزنى يكون ما يعكّر ويلوّث السلام الداخلي. في القول السابق كان السلام والصحو مهدّدين من الخارج، والآن ليسا في مأمن بسبب العزلة والتوحد، بل صارا مهدّدين من الداخل، مهدّدين بالنجاسة التي تخرج من عمق الطبيعة البشرية. وكأنّ نداء

يطلع فيّ يناديني به الآخر ويدعوني، فيقلقني . وإذ ذاك لا ملجأ لي سوى الله. المتوحدون يخرجون الى البرية لكي يخرجوا منها من الطرف الآخر: ليخرجوا إلى الله وفي الله . الحرب تتضاعف في العزلة فيجب أن نسرع في خوضها.

***

بعد الأقوال الاساسية الثلاثة عن الاتضاع والتميز والمحبة ، ثم بعد وصف وضع الراهب الواقعي في صحوه وسهره الداخلي الدائم (وكأنه كائن يتنسّم عالمين يتداخلان فيه : العالم الخارجي العادي والعالم الداخلي بقوّته الخاصة به)، علماً بأن « السهر » لفظة كتابية إنجيلية وردت في تعاليم المسيح كإحدى المعطيات الأساسية للإنسان الروحي وهي مبنيّة على الصلاة : « اسهروا وصلّوا » . (متى ٢٦ : ٤١) [١] ، وبعد وصف المتوحّد المعتق في عزلته من الحروب الثلاث ليكتسب « عفة الروح » (انه مهدّد ، لا من جهة السمع والنظر والتكلّم، بل من الداخل، من الأفكار والتصورات، لذا فهو بعد جهاد كبير على هذا الصعيد يصبح «عفيف» الروح، تاماً، غير منثلم، كل شيء فيه نقي)، ترد الأقوال التالية في شكل قصصي فتساوي

١ ـ في اللغة اليونانية نلمس الإرتباط الوثيق القائم بين السهر (prosokhé) والصلاة (proseukhé).

كل منها موعظة، بل تفهم أكثر من الموعظة لأنها تعرض لنا الإنسان في ميدان العمل ومجرى الحياة.

القول الثاني عشر

أتى بعض الاخوة إلى أبّا أنطونيوس ليطلعوه على الرؤى التي كانوا يرونها ويستعلموه هل هي حقيقية أم من فعل الشياطين . وكان لهم حمار مات في الطريق . فلمّا بلغوا الى الشيخ ابتدرهم بقوله : « كيف مات حماركم الصغير؟ » فقالوا : « ومن أعلمك بموته يا أبانا ؟ » فقال : « هم الشياطين أروني ذلك » فقالوا : « نحن لهذا جئنا نسألك لأننا نرى رؤى كثيراً ما تتحقق، فهل نحن مخدوعون؟» فبيّن لهم الشيخ من مثل الحمار أن تلك الرؤى هي من فعل الشيطان .

اننا نلاحظ الحرّية الداخلية التي يحتفظ بها أنطونيوس أمام الحادث الغريب، أمام الرؤيا أو «العجيبة»! فيقول: الشيطان أخبرني!!... وهذا يعلّمنا أن لا نتوقف عند الأمور غير العادية ولا نعيرها اهتماماً في حياتنا مع الله . فإن الأمر غير العادي والعجيب حقاً هو أن نصير إلى مثل تلك النظرة البسيطة إلى الأمور . فان الإهتمام بالأمور الغريبة

العجائبية هو في الواقع انحراف عن الإتجاه الرئيسي الذي طلب الله . « العجيبة » تلهيني عن الله ، وطلب العجب أو تصديقها يجعلني أتجنب الجهاد الحقيقي مفضّلاً عليه عم الله الخارق . في هذا القول إذاً درس في البساطة ، في رؤية الأمور ببساطة أتسلّط بفضلها على كل ما يمكن ان يعقّدني ويعيقني ، وأكثر شيء على الحوادث الغريبة التي انما تقلّد أمور الروح .

القول الثالث عشر

رجل كان يتصيّد الوحوش الضارية في البرية شاهد أبّا أنطونيوس يمازح بلطف بعض الإخوة فتعثّر . فأراد الشيخ أن يبيّن له وجوب مسايرة الإخوة من حين إلى حين ، فقال له : « ضع سهماً في قوسك وأوترها » . ففعل . فقال له ثانيةً : « شدّها أيضاً » . ففعل الصيّاد . فعاد الشيخ وقال له : « شدّها أكثر » . فقال الصياد : « ان شددتها أكثر من اللازم تنكسر » . فقال له الشيخ : « هذه هي الحال في عمل الرب ، ان ضغطنا على الاخوة فوق طاقتهم ينكسرون سريعاً . فينبغي بالتالي مراعاة حاجاتهم من وقت لآخر » . فلما سمع الصيّاد هذا الكلام اتّعظ وانصرف منتفعاً . اما الاخوة فعادوا إلى مناسكهم متعزّين مثبّتين .

هذا القول درس في « المرح » ، أي عدم المبالغة والتزمّت في الجدّ ، وهو ناتج عن قوة الروح نفسها التي رأيناهـا في القول السابـق : روح النظـرة إلى الأمـور ببساطـةٍ تحفـظ استقامة السعي نحو الهدف وتتغلّب على كل انحراف ، هنا بحجة الجد . فالمـرح يجعلنـي أتسلّـط حتـى على كل جدّ الحياة وخطورتهـا . لقد تعثّر الصّياد لمّا شاهد أنطـونيوس «يتسلّى» مع الإخوة! فجعله أنطونيوس يشدّ قوسه حتى فهم ان كثـرة الشـدّ تكسره. فلنفهـم مكانـة هذا المرح وقوته في حياتنا . فالمرح هو بمثابة التنفّس للمجاهد الروحي ، هو الحرية والثقة بالنفس التي تمنعه من تحويل الجـدّ إلى عبء ثقيل والوقـار إلى كابـوس خانـق . انـه الشفـافية الحقيقية التي ، في الوقت نفسه ، لا تنسى وقار كل من أعمالنا اليومية الجارية .

القولان الرابع عشر والخامس عشر

١٤ ـ سمع أبّا أنطونيوس براهب فتيّ قد اجترح أعجوبة أثناء سـير بعض الشيوخ إليه : فقـد شاهدهـم يسـيرون متعبين فأمر حمير الوحش بأن تأتي وتحملهم إلى أنطونيوس فأذعنت له . وقد حدّثوه هم بذلك لما وصلوا . أما هو فقال لهـم : « يلـوح لي أن هذا الراهـب يشبـه مركبـاً محمّـلاً

بالخيرات ، ولكنني لست أدري ان كان يصل إلى الميناء » .
وبعد مدة من الزمن طفق أبّا أنطونيوس يبكي وينتف شعره وينتحب . فسأله تلاميذه : « لِمَ تبكي يا أبانا ؟ » فأجاب : « لقد سقط الآن عمود عظيم في الكنيسة (وكان يقصد الراهب الفتيّ) . ولكن اذهبوا وانظروا ماحدث» . فذهب التلاميذ فوجدوا الراهب جالساً على حصيرته يبكي الخطيئة التي فعل . ولما أبصر تلاميذ أنطونيوس قال : « اطلبوا إلى الشيخ أن يتوسّل إلى الله كي يهبني عشرة أيام فقط لعلّي أكفّر عن خطيئتي » . وبعد خمسة أيام أسلم الروح .

١٥ ـ امتدح بعض الاخوة أحد الرهبان في حضرة أبّا أنطونيوس . ثم اتفق أن أتى ذلك الراهب لزيارته فأراد أن يمتحنه ليرى ان كان يحتمل الإهانة . وإذ وجد انه لم يحتمل قال له : « انك تشبه قرية واجهتها جميلة مزدانة لكنها من داخل نهبى اللصوص » .

نجد هنا درساً في الاتضاع أكثر قساوة وخطورة . فلمّا أمر الراهب الشاب حمير الوحش ان يحملوا الشيوخ إلى المكان الذي كانوا يقصدون تساءل أنطونيوس هل يصل هذا الراهب إلى الميناء ؟ ولمّا عرف بسقوطه بدأ يبكي وينتحب قائلاً : لقد سقط عمود عظيم في الكنيسة . . . أمّا الراهب

الذي امتدحه الاخوة فاختبره أنطونيوس ان كان يحتمل الإهانة ولم يحتمل ، فقال عنه انه يشبه قرية واجهتها جميلة مزينة ولكن داخلها قد سلبه اللصوص : انه الفرق بين الكيان والظهور . أمر يدعونا لأن نتساءل : أين هو كياننا ، أين نحن كائنون حقاً ، ما نحن ؟ هل تحت سلطان الظهور والغرور ، أو في ما هو داخلي ، حقيقي وعميق ، أمام الله ، ناسين أنفسنا ؟ فإذا كنّا نحتمل الإهانة فنحن أقوى من ظاهرنا . أمّا الكبرياء التي جعلت الراهب الشاب يصطنع معجزة لا ضرورة لها فآلت به إلى السقوط من حيث ارتفع : لقد كان بمثابة سفينة محمّلة بالخيرات تغرق بسبب كثرة حمولتها .

القول السادس عشر

قال أحد الإخوة لأبّا أنطونيوس : « يا أبتِ صلّ لأجلي . فأجاب الشيخ : « لا أنا أرحمك ولا الله يرحمك ما دمت لا تقوم بنفسك بالتضرّع إليه » .

طلب أحد الإخوة إلى أبّا أنطونيوس أن يصلّي من أجله . فأجابه : صلّ انت من أجل نفسك . من شروط الصلاة ، عندما نطلب صلاة الآخرين لنا ، أن نلتزم نحن

الصلاة أكثر . علينا أن نسند صلاة الآخرين لنا أمام الله ونؤيّدها، وإلاّ فالله نفسه لا يشفق علينا ولا يرحمنا. فيجب ان نبذل مما لنا، من أنفسنا، مكثّفين صلاتنا ومعمّقينها».

القول السابع عشر

أتى بعض الشيوخ إلى أبّا أنطونيوس ومعهم أبّا يوسف . فأراد الشيخ أن يمتحنهم فعرض عليهم آية من الكتاب المقدّس وبدأ يسألهم عن معناها ، مبتدئاً من صغيرهم حتى كبيرهم . فأخذوا يجيبون كل حسب طاقته وهو يقول لكل منهم : « لم تُصِبْ » . وفي النهاية سأل أبّا يوسف قائلاً : « وأنت كيف تفسّر هذه الآية يا يوسف ؟ » فأجاب : « لا أعرف » . وعندها قال أبّا أنطونيوس : « في الحقيقة أن أبّا يوسف قد وجد الطريق لأنه قال لست أعرف » .

هذا القول يرينا أبّا أنطونيوس يمتحن بعض الشيوخ بسؤاله إياهم عن معنى كلمة من الكتاب المقدس فأخذوا يجيبون كل بدوره دون أن يحسن أحدهم الجواب ، ولما وصل الدور لأبّا يوسف أجاب : لست أدري ، وعندها قال أنطونيوس : لقد وجد أبّا يوسف الطريق بقوله لست

أدري، لأنه في جوابه هذا قد «تطابق» مع نفسه. لم يعمل مثل الباقين الذين طفقوا يأتون بالكلام من خارج أنفسهم، كل بحسب ما يبدو له، لا من حقيقة ذاته وخبرته. أمّا أبّا يوسف فكان صادقاً مع نفسه. ولذلك «وجد الطريق».

القول الثامن عشر

قصد بعض الإخوة من الاسقيط زيارة أبّا انطونيوس. فلمّا ركبوا السفينة متوجّهين إليه صادفوا على متنها شيخاً كان يتوجّه إليه أيضاً، ولم يكونوا يعرفوه. وفيما هم جالسون في السفينة أخذوا يتحدّثون عن أقوال الآباء وعن الكتاب المقدس وعن عمل أيديهم. وكان الشيخ صامتاً. ولما بلغوا إلى العبر ساروا والشيخ معهم نحو أبّا أنطونيوس. فلمّا وصلوا قال لهم: «لقد وجدتم في هذا الشيخ نعم الرفيق!» ثم قال للشيخ: «وأنت صادفت اخوة طيّبين يا أبتِ». فأجاب الشيخ: «انهم طيّبون ولا شك، ولكن مسكنهم لا باب له وكل من أراد استطاع أن يدخل الإصطبل ويفكّ الحمار». قال هذا عنهم لأنهم كانوا يتكلمون بكل ما يخطر على بالهم.

هؤلاء الاخوة الذين كانوا في طريقهم إلى أبا أنطونيوس يتحدثون في أمور شتى ويقولـون كل ما عنّ على بالهـم ، يصفهم أنطونيوس بأنهم « طيّبون »، ولكـن الشيخ الذي رافقهم وهو صامت هو أيضاً « طيّب ». ويُفْهم « مـن بـين السطور » ان الشيخ الصامت هو أفضـل منهـم ، ما دام انهم بكثرة كلامهم يجعلون مسكنهم بدون باب وكل ما شاء ان « يدخـل الاصطبـل ويفـكّ الحمار » يستـطيع ذلك بسهولة .

القول التاسع عشر

زار بعض الإخوة أبّا أنطونيوس وقالوا له : « قـلْ لنـا كلمة ، كيف نخلص ؟ » فأجاب : « ألا تقرأون الكتاب ؟ فانه يكفيكم ». فقالوا : « انما نريد ان نسمع منك يا ابانا ». فقال : « يقول الكتـاب : من ضربـك على خدك الأيمـن حوّل له الآخر » . فقالوا : « لا قدرة لنا على ذلك يا أبانا». فقال : « اذا لم تستطيعوا ان تحوّلوا الخدّ الآخر فتحمّلـوا على الأقـل الصفعـة على خد واحـد ». قالوا : « ولا هذا نستطيع ». فقال: « إذا عجزتم عن هذا أيضـاً فلا تقابلـوا الصفعة بمثلها » . قالوا : « ولا هذا أيضـاً نقـدر عليه ». حينئذٍ قال لتلميذه : « هيّء لهم حساء فإنهم مرضى . إذا

كنتم على هذا لا تقدرون وذاك لا تريدون فما عساي أفعل لكم ؟ انكم بحاجة إلى صلوات ».

أمام الاخوة الذين يسألون أنطونيوس كيف نخلص ثم يقولون بأنهم لا يستطيعون ان يعملوا بموجب الكتاب المقدس : لا ان يحوّلوا الخدّ الآخر ، ولا أن يتحملوا الصفعة الواحدة ، ولا أن لا يقابلوا الإساءة بمثلها ، يلفتنا تواضع أنطونيوس : فبدلاً من أن يخوض معهم الموضوع بخطاب طويل « مقنع »(!) يلاحظ عجزهم ويقول : ما عساي ان أفعل لكم ؟ إنكم بحاجة إلى صلوات . . .

القول العشرون

زهد أحد الإخوة في الدنيا فوزّع ثروته على الفقراء ، ولكنه استبقى قليلا منها لنفسه ، وجاء إلى أبّا أنطونيوس . ولما علم الشيخ بأمره قال له : « ان شئت أن تصير راهباً فاذهب إلى القرية الفلانية واشتر لحماً و اكسُ به جسمك العاري ثم ارجع إليّ إلى هنا » . فلما فعل كما أمره الشيخ هرعت الكلاب والطيور الجوارح تمزّق جسده . وعندما عاد إلى الشيخ استخبره عن أمره ، فأراه الأخ جسمه الممزّق فقال له القديس أنطونيوس : « هكذا الذين يتركون العالم

ويرغبون في الإحتفاظ ببعض المال يمزّقهم الشياطين محاربوهم ».

قول بليغ جداً في الزهد الحقيقي . ان الأخ الذي وزّع أمواله على الفقراء واستبقى قليلاً منها لنفقاته الخاصة أمره أنطونيوس ان يشتري لحماً ويكسو به جسمه العاري ، فعاد إليه وقد نهشته الكلاب ومزّقت جسمه الطيور ، فعلّمه كنه الزهد . الزهد زهد إذا وصل إلى عمق النفس ، وهو أمر هائل . إذ ليس الزاهد من زهد في الدنيا مرة واحدة وحسب ، بل من يزهد فيها باستمرار ، من هو على استعداد دائم لأن يزهد في كل شيء ، من موقفه موقف زهد ، من هو مستعد لأن يزهد في الزهد نفسه ، في الفضيلة كفضيلة . ان الزهد الحقيقي حالة نفس تلازم المرء وتلاحقه . ولا نستطيع ان نقول إننا قد زهدنا وانتهينا ! فلا بدّ من تجاوز دائم ، متجدد ومتعمّق . لماذا هذا كله ؟ لأننا ما دمنا لم نزهد في أصغر الرباطات وأتفهها فنحن لسنا أحراراً . علماً بأن أتفه الرباطات هي أصعبها ، والزهد فيها هو أكثر « نهائية » وحسماً . وإلاّ فإني أتعلق بالأشياء الصغيرة تعلقاً أشد من تعلقي بالأشياء الكبيرة ، تلك التي زهدت بها في أول الطريق . وأضيف على لذّة تعلقي هذا

لذّة زهدي الأول . أمّا الأمور الصغيرة التي أتعلّق بها فتصبح لي أكثر عبئاً وثقلاً من الأمور السابقة الكبيرة . بينما إذا سلكت النهج العكسي ، إذا مارست الحرية فسيأتني الزهد . . . ربما ينبغي ان لا نهتمّن كثيراً بالزهد كزهد ، بل فلنمارس الصلاة والإنفتاح للآخرين والمحبة ، فيأتينا الزهد ، ويكون أسمى من التملك أو عدم التملك جسدياً ، أسمى من واقع الزهد الخارجي . وقد قال بولس الرسول : « ليكن الذين يشترون كأنهم لا يملكون ، والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه » (١ كو ٧ : ٣٠ ـ ٣١) ، فلنكتسب إذاً الحرية الروحية ، فهي الطريق الفضلى .

القول الحادي والعشرون

وقع أحد رهبان دير أبّا إيليا في تجربة ، فطرد من الشركة فذهب الى الجبل إلى أبّا أنطونيوس وأقام معه مدة من الزمن . ثم عاد أبّا أنطونيوس وأرسله إلى ديره . ولكن ما ان رآه الإخوة حتى طردوه ثانية . فرجع إلى أبّا أنطونيوس قائلاً : « لم يشاؤوا ان يقبلوني يا أبت » . حينئذٍ أرسله إليهم قائلاً : « مركب في عرض البحر أشرف على الغرق فضاعت حمولته ، ثم وصل بالجهد الى الشاطىء . أفتريدون أنتم أن

تلقوا في البحر من جديد من وصل إلى البر آمناً ؟». فلما علم الرهبان بأن أبّا أنطونيوس هو الذي أعاده إليهم قبلوه في الحال .

تبرز في هذا القول محبة القريب حيث يجتمع ويتجلى الزهد الحقيقي وحسن التمييز . أخ جُرّب بالزنى فطرد من ديره مرّتين فبعث أنطونيوس يقول لهم : مركب أشرف على الغرق وتلفت حمولته ووصل إلى البر بصعوبة ، أفتريدون ان تلقوا به أيضاً إلى البحر ليتلف كله؟ ونلاحظ ان هذا القول يلتقي مع القول التاسع والعشرين حيث نرى الاخوة يصرّون على تجريم أحدهم بالزنى فيقول لهم أبّا بفنوثيوس : «رجل غائص في الحمأة حتى ركبتيه جاءه بعضهم ليساعدوه فأغرقوه إلى عنقه!». فيثني عليه أنطونيوس قائلاً: «هوذا رجل قادر على شفاء النفوس وخلاصها». في هذين القولين حسن تمييز وحرية سيّدية أقوى من مفاهيم حجة النظام والبرّ . ويغلب فيهما مبدأ الإتصال الحيّ بالنفوس وإعادة الحياة إليها بالمحبة .

القول الثاني والعشرون

قال أبّا أنطونيوس : أعتقد أن للجسد حركة طبيعية فطريّة إلاّ انها لا تعمل بدون إرادة النفس بل تظهر في

الجسد كحركة خالية من الهوى . و أن له حركة أخرى مصدرها التغذية ، أي إرتفاع سخونة الجسم الناتج عن الأكل والشرب ، إذ ان حرارة الدم تثير الجسد وتحركه . ولذا يقول الرسول : « لا تسكروا بالخمر التي فيها الخلاعة » (أفسس ٥ : ١٨) . والرب في الإنجيل يوصي تلاميذه بأن « احترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في الخلاعة والسكر » (لو ٢١ : ٣٤) . و أن هناك أيضاً حركة أخرى للجسد يثيرها الشيطان عند المجاهدين ، وذلك بالحيلة وبدافع الحسد . فليكن إذاً معلوماً ان للجسد حركات ثلاث : حركة مصدرها الطبيعة البشرية ، وحركة مصدرها كثرة الأطعمة ، وحركة مصدرها الشياطين ».

يقول أنطونيوس أن حركة الجسد تتأتى من الطبيعة البشرية أو من كثرة الأطعمة أو من الشيطان . هذا درس أيضاً في حسن التمييز وروح الحرية ولكن تجاه أنفسنا : لا نتسرّع ونقول أمام كل ضعف أو خطيئة ان الشيطان هو الذي يجرّبنا ويوقعنا ، فنقلق مجاناً أو نخدع أنفسنا ، بل فلنميّز بين المستويات الثلاثة في حياتنا : ان كانت حركة الجسد متأتية من الطبيعة البشرية فليست هذه خطيئة بل هي أمر فيزيولوجي طبيعي . و إن كانت متأتية من كثرة

الأطعمة [1] فحرية الإنسان هي التي انحرفت ووقعت، ويكفي أن نريد لكي نتقوّم . . أمّا الشيطان فلا يتدخل ولا يحاول أن يوقع إلاّ المجاهدين الحقيقيين فقط وذلك حسداً منه لهم. وهنا، في حالة الجهاد الروحي، يكفي ان لا يعتدّ المرء بذاته ولا يتكل على برّه ليردّ الشيطان على أعقابه. فلا نسرع إذاً وننسب سقطاتنا إلى الشيطان متسترين به بينما نحن في الواقع حلفاؤه . نحن المسؤولون عن خطايانا بالنتيجة في المستويات الثلاثة و إن كان بصورٍ مختلفة. فينبغي في حياتنا الروحية ، قبل كل شيء، أن نتجنّب التشويش والبلبلة، أن نجلو مثل تلك الأوضاع المغلوطة وشبه الصعوبات.

القول الثالث والعشرون

وقال أيضاً : « ان الله لا يسمح بأن يتعرّض الجيل الحاضر للحروب التي كان يتعرّض لها جيل الآباء والأجداد، لأنه يعلم أن رجال اليوم ضعفاء لا يحتملونها ».

لقد ميّز القول السابق بين ثلاث حركات مهمة للجسد ، و أوضح لنا أنها بمثابة ثلاث «مناطق» أو مستويات تقتسم حياتنا كلها.

---

١ ـ أو غيرها كعدم ضبط الحواس أو كثرة الكلام وما إلى ذلك كشرب الخمرة والتزيّن الخ . . .

والآن فإن الأقوال الثلاثة التالية تؤلف أيضاً ، على صعيد آخر ، رسالة ذات معنى نبويّ ، وكأنها تنقل كلام أنطونيوس النبوي إلينا :

فالقول الثالث والعشرون يفيد أن الله لا يسمح بأن يواجه « الجيل الحاضر » القتالات التي كان يتعرّض لها « جيل الأجداد أو الآباء » لأن رجال اليوم ضعفاء لا يحتملون نضالاً كهذا . ولدى التأمل والتدقيق في هذا القول نتبيّن فيه معنى غنياً حقاً : ان زمن الأجداد ، « الزمن الماضي » الذي هو أقوى و أوفر مواهب روحية من الزمن الحاضر ، يرد دائماً ويوصف على هذه الصورة في تقليد الآباء في كل الأجيال . وهو يبدو غريباً لا نستطيع ان نحدّه في زمن معيّن : نجده يُذكر منذ القرن الرابع ، في أيام أنطونيوس ، كما نجده في أيام تلاميذ أنطونيوس ، وكذلك في القرن السابع عند يوحنا السلّمي ، وهكذا جيلاً بعد جيل حتى القرن التاسع عشر . وكأنه لا زمن له ، أو كأنه « مزمن » . فما معنى هذا ؟ معناه أن هذه في الحقيقة حالة روحية ذات نوعية معيّنة . هناك واقع بشري هو أن كلاًّ منّا يشعر بالماضي إجمالاً ويتصوّره كفترة أفضل من الأيّام التي يعيشها . ولهذا تفسير بسيط إذ أننا لا نذكر من الماضي عادةً

إلاّ الحوادث البارزة ، الإيجابيات أو « البطولات » التي تلفت النظـر . فنبسّطه ونقصره عليها في ذهننا ، وننسى أن الماضي كان أيضاً حاضراً لمن عاشه ، حاضراً بكل واقعيته وضعفاتـه . ولهـذا ثانياً تفسـير عميق أيضـاً ، تفسير روحـي ، وهـو أن كل جيل يدين بالإعتـراف بالجميل وبالشكر والحياة للماضي الذي سبقه والذي نقل إليه تراث الروح . وهـذا يضعـه في موقف من « التبعية » يفسّر ذلك الشعـور . ولكن هناك وجهاً آخر ـ لرسالة أنطونيوس هذه ـ بالنسبة للملتزمين في الحياة الروحية : وجهاً يقول لنا بصورة غير مباشرة ان الحياة الـروحية هي جهـاد ، هي قتـالات وهجمات تثار علينا ، وهذا كثيراً ما ننسـاه . هنـاك طرق مختلفة نفهم من خلالها الحياة الروحية وننظّمها . ولكنها في الواقع « تتمركز » أكثر بوصفها جهـاداً ، وكأنهـا تقـول أن الأجيال القادمـة (لأنهـا تزداد بعـداً عن المركز الأصلي) ستصير أضعف مراساً ولا تحتمل القتـال . وهـكذا ، على هذه الصـورة ، نضفـي على الحياة الـروحية وجهـاً ، أو تفسيراً ، بل تبريراً يؤول إلى إضعافهـا . ونستنتج من هذا ان ما يقوله أنطونيوس أمر مهم ولا شك . انه رجـل رؤية معيّنـة للحياة الـروحية ، رؤية « الآبـاء » : لا على صعيد الزمن ، بل الآباء « كأصل » ، كبداية . هناك « بدء » لكل

شيء منذ ابتداء العالم ، بل نرى الكتاب المقدس يروي لنا وكأنه يقفز من بدء الى بدء آخر : بدء الخليقة ، في سفر التكوين ، وقبله البدء الأزلي ، البدء الشفاف : « في البدء كان الكلمة » في إنجيل يوحنا ، ثم في سفر الرؤيا : « السماء الجديدة والأرض الجديدة » (رؤ ٢١ : ١) ، « والروح والعروس يقولان تعال » (رؤ ٢٢ : ١٧) « تعال أيها الرب يسوع » (رؤ ٢٢ : ٢١) ، وكأنها الخاتمة التي تجمع بين كل البدايات السابقة في عرس هو البداية الدائمة .

بهذا المعنى « الآباء » هم من كل الأزمان . هم من ينفتحون لروح الله (وروح الله يعمل في كل حين) . وقد يكون « الآباء » شباباً إذا انتموا إلى « الأصل » إذا كانوا ممن يجاهدون ، ممن يلتزمون الجهاد . . . وحين يغيب الجهاد تغيب الحياة الروحية ، ونمسي وليس لنا « آباء » ، ليس لنا أناس خلاّقون ، « بادئون » ، بل نقبع في رتابتنا ، « ضعفاء » . وفي الضعف لا نستطيع ان نبدع شيئاً ، لأنه ، من أجل استمرار حياة الله بيننا لا بدّ ان نبذل حياتنا . هذا هو ما يرفعنا إليه أنطونيوس في هذا القول .

القول الرابع والعشرون

أُعلن لأبّا أنطونيوس في البرية الإعلان الآتي : ان في المدينة رجلاً يضاهيك . انه طبيب ، يعطي ما يفيض عن حاجته إلى الفقراء والمحتاجين ، ويرنّم اليوم كلّه نشيد الثالوث مع الملائكة .

هذا القول بمنزلة تكميل للقول السابق . لقد أوحي إلى أنطونيوس في البرية أن في المدينة رجلاً يضاهيه : طبيب يوزّع ما يفيض عنه إلى الفقراء ويرنّم كل يوم نشيد الثالوث مع الملائكة. لقد أُعلن هذا لأنطونيوس بفعل موهبته النبوية أيضاً. وفي هذا الإعلان الإلهي أولاً تقابل بين البرية والمدينة : ان يوجد في المدينة من يضاهي أنطونيوس أمر غير متوقع (وقد قضى أنطونيوس تسعين سنة في البرية يجاهد ويعبد الله) . انه لإعلان غريب، يأتي بعد قول أنطونيوس السابق القائل بأن الجيل الحاضر ضعيف. ان كون ذاك الطبيب يعطي المحتاجين ويصلّي مع الملائكة يحقق مثال أنطونيوس حين لبّى الدعوة : لقد أعطى كل شيء للفقراء وجاء البرية يرنّم فيها قدوس الله مع الملائكة. ان نشيد الثالوث هذا يعود إلى ما قبل خَلق العالم المادي المنظور حسب الرأي التقليدي المبنيّ على قراءة معيّنة للكتاب

المقدس . انه نشيد تسبيح الله . أمّا الظفر فعبّر عن العبادة التي هي في حد ذاتها ظفر : ظفر الخليقة على ذاتها ، عوضاً عن عبادتها لذاتها وابتعادها عن الله . ان هذا ما حدث حين اختار الملائكة في البدء بين عبادة الله وعبادة أنفسهم (كما يحدث لنا أيضاً). فهناك ملائكة العبادة وملائكة العصيان. و «ميخائيل»، رئيس ملائكة الله يعني اسمه «مَن مثل الله ؟» (أيّ إله مثل إلهنا؟). فملائكة الله هم إذاً مثل تعبير عن حالة إلهية، تعبير عن العبادة لله يعكسونها مباشرة كونهم شفافين لله (بعكسنا نحن). وبالتالي فالحالة المثلى التي يعلّمنا إياها قول أنطونيوس النبوي هي حالة عبادة وجهاد، بل نفهم أن الجهاد الروحي غايته العبادة. اننا نغلب لكي نعبد. ولا نستطيع ان نعبد إلاّ بعد جهاد. ذلك على مثال صراع يعقوب مع الملاك الليل كله. الذي إذ غلب صار «أباً». لم يعد أخاً مثل أخيه عيسو، وعلى أثر ذلك تخطى خلافه معه بالمصالحة (أنظر خروج ٣٢ : ٢٤ ـ ٢٨). وهذا ما يدفعنا إليه أيضاً أنطونيوس الآن : ان نصير «آباء» بتسبيح الظفر . . .

القول الخامس والعشرون

قال أبّا أنطونيوس : « سوف يأتي يوم يجُنّ فيه الناس ،

وإذا صادفوا إنساناً عاقلاً قاموا عليه قائلين : « أنت مجنون » . ذلك لأنه ليس على شاكلتهم .

قول« رؤيوي » أيضاً ، إعلان نهائي أخير : «سيأتي زمن يجن فيه الناس وإذا صادفوا إنساناً غير مجنون قالوا عنه انه قد جنّ ، لأنه لا يشبههم » . من الواضح ان أنطونيوس ينظر الى وقت « أخير » ، إلى مصيبة أو « كارثة » روحية تنقلب فيها القيم رأساً على عقب . ويصير فيها جميع الناس إلى حالة « الضجر » التي اختبرها أنطونيوس بمفرده في القول الأول ،إلى ضجر عام في الجهاد الروحي تفقد معه الحياة الروحية قيمتها ومعناها . فلماذا يكون هذا؟

ان كلمة جنون تشير هنا إلى جنون أناس ذوي عقل . يقال اليوم ان مقياس الجنون الأخير مقياس إجتماعي (أي أن الجنون في حد ذاته يصعب معرفته وتحديده تماماً) . يمكن تعريف المجنون المقصود هنا بأنه « من يفقد كل ملكاته العقلية ما عدا العقل » ، أي أنه مجنون ولكنه لا يناقض ذاته . ان الذي يعيش في الإسراف والأهواء لا يناقض ذاته، بل متى شعر بأنه يناقض ذاته أصبح قابلاً للشفاء . الجنون هنا جنون غريب كما ترون . إلاّ أنه لا يؤلف غرابة إجتماعية بل هو بالعكس أمر عادي في رأي

المجتمع ، بل هو قاعدة العيش في المجتمع . انـه انقلاب هائل للأمور . ومن جهة ثانية فإن هناك أناساً يواجهون ذلك ويختبرونه منذ الآن ، ولا يعودون قادرين على معرفة مبدأ سيرتهم الروحية أمام من يقول لهم أنهم قد جنّوا . فتحصل لهم مشادة مع المجتمع . ان جهادهم هذا جهـاد غريب ، ربما كان أقسى وأكثر تعقيداً من جهاد البـرية . ففي البرية كان الجهاد مستقيماً ، واضحاً ، معترفاً به ، أما في وضعنا الحاضر فنهاجم من كل صوب ونوضع موضع التعثير والشك ، ولا نعود نعرف أو لا نجد بسهولة طريقنا المباشر الى الله ، بسبب الضغط الإجتماعي المحيط بنـا . وقـد قال أحد الآباء «إن الرهبان الذين يقاومون اليوم منهج هذا الدهر ويصمدون مقابله سوف يضاهـون يوحنـا المعمـدان وذلك بمجرّد صمودهـم ودون أن يعملـوا أي شيء ذا شأن». انه « الضجر » يسود من جديد ، ولكن لا في البرية . انه ثبوط الهمم ، ولكن لا بسبب قساوة الجهاد ، كما كان في البرية ، بل بسبب دقته وتعقيده . فينبغي أن نتبيّن سبب هذا الجنون العام ان نعرف أنهم غـيرّوا مكان العقـل ، لا حيث يسود الروح ، بل حيث تسود الجماهير والمجتمع والعالم . . أمّا أنطونيوس فيظهر مقابل ذلك فطناً متضعـاً : « اذا صادفـوا إنساناً غير مجنون ، أميناً لسيرته ، قالـوا أنـه قد جنّ ».

أنطونيوس وحده هنا أيضاً . إنه في عزلة جديدة تتطلب حكمة خاصة . الإنسان يعود ويلقي الجهاد ، ولكن في ظروف أقسى جداً وأكثر تعقيداً كما قلنا .

ويبرز هنا موضوع « ما هو الشيطان بالنسبة لراهب اليوم ؟ ». ماذا نحارب؟ ان قوات الخير معروفة وهي كل ما ينتمي للمسيح . أما قوات الشر فما هي ؟ ما هي طبيعتها أولاً ؟ هناك جواب أول لهذا السؤال على صعيد الواقع الظاهر (الفينو مينولوجي) : الشر هو ميولنا الطبيعية الشريرة . ونحن على هذا الصعيد نضع الخير مقابل الشر بمثابة قوة مقابل قوة أخرى : ميل خيّر مقابل خير شرّير . فإذا كنت مثلاً لا تريد أن تحترق من ناحية العفة فاذهب وتزوّج وليكن لك وضع إجتماعي فتستقر . ولكن ليس الأمر هكذا فقط ، لا ينبغي أن نقف عند هذا . فالحقيقة أنه كان جهاد آخر موضوعاً أمامي فأحجمت عن خوضه ولذا توصّلت إلى تلك النتيجة . فالوجه الآخر هو إذاً اني بوصفي راهباً أخوض جهاداً آخر أختاره أنا طوعاً ، وعلى مستوى هذا الإختيار تأتي الصعوبات . ما هو هذا الجهاد الآخر ؟ انهم يصوّرونه تقليدياً كحرب بين الخير والشر ، بين الله والشيطان . ذلك من باب التصوير القريب السهل ، والتعبير النفساني ، لا كتحديد نهائي ومطلق وعقائدي .

فيجب ان تكون رؤيتنا للأمر رؤية فطنة مرنة ، رؤية تستوحي خبرتنا الروحية وعيشنا لسرّ الله . نحن ، كملتزمي الجهاد الروحي ، مقيمون في قلب المشكلة حيث يبدأ كل شيء . ولذا فليسمح لنا بالتكلم عن الشيطان لا كعقيدة شعبية (والتصوّرات الشعبية كثيرة) ، بل من قبيل الكشف والإعلان عن عالم الله . في هذا الإعلان واقع معيّن أو « كائن » اسمه الشيطان ، إبليس ، « الخصم » . المسيح نفسه أعلن لنا واقع الشيطان في حياته على الأرض ، وقد ورد ذكره في الكتاب المقدس كمجرّب للناس (« الحيّة » في سفر التكوين) أو كمشتكٍ عليهم ، ولكنه يبقى غير محدد وغير واضح المعالم تماماً . المسيح وحده يلاقيه وجهاً لوجه بعد مضيه أربعين يوماً في البرية ، وذلك لا كمساوٍ له بل كأمر واقع يجب أن يكشفه . انه « ابليس » ، « القتّال للناس » المبغض لجنس البشر . وهذا لا على الصعيد العاطفي ، بل كنكران مطلق جذري لله ولكل ما هو من الله وما ينقل الله . فبما أن صورة الله موجودة في الناس فإبليس هو قتّال للناس . ولكن الأمر يبقى أيضاً سرّياً (على صعيد ميستيكي) . وقد جابهه المسيح وحده على هذا المستوى إذ يبدو أن ابليس هو أيضاً « ملاك ساقط » ، ولكنه ملاك .

وكملاك يشتكي على الاخوة (رؤ ١٢ : ١٠) مبرزاً ذنوبهم . ذلك لأن الخطيئة ليست سوى انحراف لحريتي . إلاّ أن الشر كان حاضراً قبل انحراف حرّية الإنسان في الفردوس . وقد ظهر في دور المجرب ، الذي يبتغي إسقاط الإنسان . ولكن المسيح قد جاء ليعيد للطبيعة الإنسانية الساقطة ملئها ، قوتها ونورها ، واستيعابها لله ، أي ليصيرّها حرة من الشر ، وقادرة على قهر التجربة صنع إبليس . إذاً عمل المسيح يناقض عمل إبليس . وهو يغلب إبليس أولاً في طبيعته البشرية . لقد تحررت طبيعتنا بالمسيح وهي الآن قادرة على الجهاد الروحي (أنظر عبر ٦) . ان حرّية الإنسان أصبحت قادرة على الغلبة و أصبح الإنسان قادراً على تبني طبيعته وتغييرها . الإنسان أكثر من الإنسان : لأن المسيح قد جاء وإلاّ لكان قد بقي أقلّ من الإنسان بكثير . ولكننا لا نزال في الطريق ، في حالة من القباحة (لا كلياً) ، غير أن مبادىء القيامة قائمة فينا . نحن في المسيح ، ولكن يجب ان نتبنى كوننا في المسيح بحريتنا . ان « ندخل » خلاص المسيح ونحن سائرون « إلى الوراء » كما يقول كبازيلاس ، أي بدءاً من النهاية ، ان ندخل مباشرة في القيامة فنطرد منّا آثار الموت ، وذلك لا بصورة آلية بل بالتبني والكفاح .

وهنا في مجال هذا النضال يطرأ تطوّر في نظرتنا الى الشيطان ، فنفهم ان لكلٍ منّا خصماً ، على قياسه ، وطبق طاقته . وقد رأينا الآباء يقولون أن ليس كل حرب من الشيطان ، إلاّ أنه في البدء كان الشيطان سائداً في كل مكان تقريباً . ثم جاء أنطونيوس وغيره من الرهبان فقاوموه واحتلّوا شيئاً فشيئاً مملكته . ولذا فلم يعد الشيطان مباشرة علّة تجاربنا وضعفنا ، بل طبيعتنا ، بل حريتنا . الشيطان بعد المسيح عاجز أصلاً . وعجز الشيطان هذا كان القاعدة عند جميع من حاربوه وقهروه . هو من ذاته عاجز . هو الخصم المغلوب . ولكن لكي نستطيع أن نقول هذا حقاً ينبغي أن نكون قد جابهناه ونازلناه ، واختبرنا قوة المسيح بإزائه . هذا ومن جهة ثانية فإن الشيطان اليوم لا يحتاج إلى الظهور بأشكال منظورة ، كما كان يظهر لأبطال البرية . ولكنه مع ذلك لا يزال يعمل . لم ينته من العمل ولن ينتهي . بل ؛ وهو « الكثير الحيَل » ، جعل الجهاد أدقّ بكثير . هو لا يعود يهاجم الجسد (بالضرب وغيره) أو حتى النفس (بالتجارب النفسانية) بل يهاجم الروح مباشرة ، الأعماق (لأننا نعرّض أنفسنا لذلك) . ولذا كان الجهاد اليوم قاسياً كالقساوة الأولى بل أقسى . ان ظفر الشيطان الكبير علينا هو أن يجعلنا نعتقد بعدم وجوده . لسان حاله :

« أنا لا أحد » . فيهاجم خلسة ضوء الضمير عينه فينا ليخمده ، وينقض حتى الإيمان والله ومعنى الكون كخليقة الله . كل ذلك تثبيتاً لمملكته لأنه « رئيس هذا العالم » . يهاجم قداسة الله وسموّه . يفصل بينه وبين الإنسان من جديد ، هو الذي يفصل ويفرّق ويقسم . يفتعل ازدواج ضمير الناس ووجدانهم . في كتاب « المجانين » لدوستويفسكي يقول أحدهم : «اني أؤمن بالملائكة وبكذا وكذا . أما بالله فأؤمن نصف إيمان » . انه جهاد هائل أمامنا ، لأنه بلبال هائل . كل ذلك لأننا نزدوج . ليس لنا « كلية » الإيمان واستقامته وقوته . نرى الشيطان حيث لا يعود يظهر (كما في التجارب التقليدية مثل الطعام والنوم والنساء . . .) ولا نراه حيث هو فعلاً . هو هنا يستمر في إبعادنا عن الله ولكنه وكأنه ليس هنا . هذا ولن نستطيع ان نتبيّنه ونغلبه إلاّ بمعرفة ذواتنا في العمق معرفة دقيقة . هذا ما عمله الآباء وهذا ما يستعيده اليوم علم النفس . وقد قال اسحق السرياني : ان تعاين ذاتك أفضل من أن تعاين الملائكة .

القول السادس والعشرون

زار بعض الاخوة أبّا أنطونيوس وسألوه عن آية في سفر

اللاويين . فخرج الشيخ إلى القفر وتبعه أبّا عمّون خفيةً ، إذ كان يعرف عادته . ولما ابتعد جداً وقف يصلّي وصرخ بصوت عظيم : « اللهم أرسل موسى ليشرح لي هذه الآية » وإذا بصوت يكلمه . وقد قال أبّا عمون : « لقد سمعت الصوت ولكني لم أدرك قوة الكلام » .

نتابع التأمّل في أقوال أنطونيوس وقد رأينا من خلال نظره النبوي والرؤيوي كيف تأتي أيام يصير الناس فيها مجانين . . . واكتشفنا كيف تتغيّر أمور كثيرة ، منها أساليب الشيطان في محاربته لله وإبعاد الناس عنه ، وبالتالي كيف تأتي أيام يتغيّر فيها « أسلوب » الكنيسة . ليس للكنيسة بالضرورة أسلوب واحد ثابت نظن أنه هو الذي نعرفه وحسب (!) بل هي تتكيّف حسب « الأزمنة » ، علماً بأن آباء الكنيسة (حتى القرن الخامس) كانوا واعين أن مصير الكنيسة ليس « الإقامة » والظفر على الأرض (مثلاً باسيليوس وآباء البرية . . .) . فللكنيسة معنى آخر أو وجه آخر غير الذي نراه ، إذ أنها بالنتيجة لا تخرج عن مصير المسيح مؤسسها ، وليست غايتها أن تستمر في الوجود استمراراً ظاهرياً شكلياً . ونحن نجد عند الآباء في هذا الصدد حرية غير عادية (هي حرية السيّد) تجعلهم لا يتوقّفون عند ما هو سطحي وعابر ، بل يعتقدون ان للكنيسة مصيراً

فصحياً يكتب لها فيه الموت لتنبع منه القيامة .

في القول السادس والعشرين نرى أنطونيوس يطلب إلى اللـه أن يرسـل إليه موسى ليفسّر له معنـى كلمـة من سفـر الـلاويين سأله عنهـا بعض الاخـوة . طبعـاً لم يكن أنطونيوس يتوقع ان يرسل إليه الله موسى جسدياً ، ولـكن الأرجح انه تضرّع إلى الله بصراخ ، كطريقة صلاة ، لكي يدخله في الروح الذي كان يلهم موسى عنـد كتابتـه سفـر الـلاويين [1] . ونحـن أيضـاً يجـب ان نضرع ونصرخ في الصلاة إلى الله طالبين أن نشعر بقوة كلام الكتاب ، أي أن يعطينا روحه القدوس لكي نفهم الكتاب .

القول السابع والعشرون

اعتـاد ثلاثـة من الآبـاء أن يأتـوا كل سنـة إلى المغبـوط أنطونيوس . فكان إثنان منهم يسألانه عن الأفكار وخلاص النفس . أما الثالـث فكان يلـزم الصمـت ولا يطـرح أي سؤال . وبعد زمان طويل قال له أبّا أنطونيوس : « أنـت تزورني منذ زمان ولـم تطرح عليّ سؤالاً البتة ؟ » فأجاب :

---

١ ـ ويأتينا هنا قول أورجنس في تفسيره لإنجيل الشعانين : حلّوا الحمار ـ أي « الحرف » ـ لكي يدخل عليه المسيح إلى أورشليم ـ أي الى الروح .

« يكفيني أن أراك يا أبت » .

هذا القول (وما يليه حتى القول الثالث والثلاثين) هو بمثابة رسم روحي أو لوحة روحية لأنطونيوس ومواهبه. فإن أحد الآباء الذين اعتادوا ان يزوروه كل سنة ولم يكن يطرح عليه أي سؤال أجابه عند استفساره: «يا أبتِ حسبي أن أراك». في هذا الجواب رقة كبيرة. نلمح من خلاله شركة بينه وبين أنطونيوس في ما وراء الكلام. لقد تجلّى الكلام بالنسبة إليه وتحوّل إلى رؤية. الكلام من هذا العالم. انه يردم البعد القائم بين الناس ولكنه يبقى من هذا العالم. أمّا الدخول إلى تخوم ما بعد الكلام، في رؤية ومعاينة داخلية فاوسع من الكلام وهو الذي يكيّف الكلام. «ان الصمت سرّ العالم الآتي» (اسحق السرياني). من يمتلىء من معاينة أنطونيوس يكتفي، و يمتلىء . ولا ضرورة بعد لكلماته لينال روحه.[1] ولذا فإن مجرّد المعاينة تجلب الفرح. «إذا رأيت أخاك في البرية تبتهج وتفرح كمن يرى ملاكاً». وكأن قيمة الرجل كامنة في رؤيته. أو كأن أجرك في أن تراه. ذلك بعكس ما يكون عليه الأمر في حال الخلطة والاختلاط.

---

١ - في الهند يعبّرون عن ذلك بكلمة « درشانا » ، بمعنى رؤية أو حضرة . ويقولون أن الرجل الروحاني يعمل في « حضرة » الله . ويصلّون قائلين : تكرم وأعطنا « درشاناك » أي حضرتك . . .

القول الثامن والعشرون

قيل أن أحد الشيوخ طلب الى الله أن يعاين الآباء . فرآهم جميعاً ما عدا أبّا أنطونيوس . فسأل دليله : « أين أبّا أنطونيوس ؟ » فأجابه قائلاً : « حيث الله هناك أنطونيوس ».

ان هذا القول يعبّر عن مدى اتحاد أنطونيوس بالله . قد يكون من قبيل الإطراء والمدح . ولكن مضمونه صحيح كلياً بدقة . انه ينفذ إلى حقيقة القداسة . فبالقداسة يصير الإنسان غير منظور، يصير في ستر الله ، يخرج من دنيا الظهور، وكأنه غير موجود . ولكنه موجود بالله وفي الله ، أي أن له ملء الوجود . وقد قال أحدهم : «اني في الله أمّحي كلياً لأكون فيه سرمداً» .

القول التاسع والعشرون

اتُّهم أحد الاخوة في أحد الأديار بالزنى ، فقام وجاء إلى أبّا أنطونيوس . فلحق به أخوة الدير ليصلحوا أمره ويستعيدوه وابتدأوا يقولون له : « لقد فعلت كذا

وكذا . . . » . أمّا هو فكان يؤكد انه لم يفعل شيئاً من هذا. واتفق ان كان هناك أبّا بفنوتيوس كفالاس فضرب لهم مثلاً قائلاً : « رأيت على ضفة النهر رجلاً غائصاً في الحمأة حتى ركبتيه ، فجاءه أناس لينجدوه فأغرقوه إلى عنقه » . فقال لهم أبّا أنطونيوس : « هوذا حقاً رجل قادر على أن يشفي النفوس ويخلصها» . فتأثر الاخوة لكلام الشيخين وسجدوا للأخ نادمين وعادوا به إلى الدير ببركة الأبوين .

لقد أتينا على ذكر هذا القول أثناء التأمل في القول الحادي والعشرين . وفيه يمدح أنطونيوس بفنوتيوس لأنه شبّه الأخ الملاحق بتهمة الزنى برجل غائص في الحمأة حتى ركبتيه فجاءه أناس ليخلّصوه فأغرقوه إلى عنقه . وكان مدح أنطونيوس له أنه : « هوذا رجل قادر على شفاء النفوس وخلاصها » . وهو مدح بنّاء بليغ مفاده ان المحبة وحدها تستطيع ان تخلص النفوس كونها خلاّقة . ومنه نفهم كيف ينبغي أن يسلك المسؤول عن النفوس . ينبغي ان يرى في الآخر الإنسان الحيّ الذي يتخبّط في ضعفه فيبادر إلى مساعدته وإنقاذه . ان العقلية القانونية ، « الحسابية » ، لا تنظر بالعكس إلاّ إلى الفرد إذ تهمّها الأكثرية كعدد ، وتفرض على الفرد أن يخضع للأكثرية ، بصرف النظر عن خلاص نفسه . فالمسؤول عن النفوس يجب ان ينظر إلى الآخر

كإنسانٍ وليس بصورة مجرّدة ، و ان يشعر به ومعه كإنسان ، وأن يسعى لاسترجاعه من خطيئته بالمحبة لا بالإدانة أو الطرد ، فإن الإدانة والطرد لا تحلاّن شيئاً .

القول الثلاثون

كان يقال عن أبّا أنطونيوس انه صار حاملاً للروح ، ولكنه كان يكتم ذلك تحاشياً لفضول الناس . وقد اتفق أن كشف فعلاً ما يجري في العالم وما يحدث في المستقبل .

كان يقال عن أبّا أنطونيوس إنه صار ممتلئاً من الروح ، أو « حاملاً للروح » ، أو ، حسب العبارة الطقسية المألوفة والتي هي عنوان الرهبان (آباءنا الأبرار) ، صار « متوشحاً بالله » . وهي حالة من النعمة كان بإمكانه بموجبها ان يكشف ما يجري في العالم وما سيجري في المستقبل . ان « نظرة الروح » نظرة نافذة (dioratikos)، أي ترى من خلال الأشياء . ولكن أنطونيوس لم يكن يشاء أن يتكلم عمّا يراه تحاشياً لفضول الناس . ان الموقف السليم اللائق بالمتوشح بالله هو الصمت والاتضاع ، على غرار الحياة الخفية تحت الأرض . لا بدّ من تفضيل روح الله على روح العالم ، لأنهما لا يتفقان ، ولأننا بسبب الثاني

نفقد الأول . هذا لا يعني انه يجب ان لا نعمل ! [1] ولكن ليس من « وصفة » جاهزة تحدد متى ينبغي أن نصمت ومتى ينبغي العكس . فلكل حالة ظرفها الخاص . أما إذا وضعني الله في حالة وجب عليّ فيها أن أكشف روحه وأعلنه لكني أصررت بعنادٍ على عدم التكلم فإني أعود أنا بذاتي إلى الوراء من جديد . لا يحدّد الأمر مسبقاً . لنذكر باسيليوس الكبير الذي تركه الأخ المطيع أن يصبّ له ماء على يديه ، فمدحه بينما تعجّب الباقون .

القول الحادي والثلاثون

تلقى أبّا أنطونيوس ذات يوم رسالة من الملك قسطانس يدعوه فيها لزيارته في القسطنطينية . فأخذ يتساءل ما العمل ؟ ثم قال لتلميذه أبّا بولس : « هل يجب أن اذهب ؟ » فأجابه : « اذا ذهبت دُعيت أنطونيوس . أما إذا لم تذهب فستدعى أبّا أنطونيوس » .

لما تلقى أنطونيوس رسالة من القيصر تدعوه إلى القسطنطينية سأل تلميذه بولس البسيط : أيجب عليّ أن

---

١ ـ كان طالب في معهد الرهبان في بوخارست إذا سأله الإستاذ لا يقول ما يعرفه : ذلك « عن اتضاع »!!؟

أذهب ؟ فأجاب : إنْ تذهب تدعَ أنطونيوس و ان لم تذهب فستدعى أبّا أنطونيوس . . .

لم يأنف من أن يسأل تلميذه ، معتبراً اياه أخاً له لا تلميذاً . لم ينحدر بعد أتعابه الجمّة إلى كبرياء الروح (أنظر القول السابع والثلاثين) . وكان الجواب هائلاً : إذا ذهبت إلى المدينة قد تفقد نعمتك ، تلك النعمة الممثّلة بلقب « أبّا » ، أي أباً روحياً . ويظهر هنا أيضاً ذلك التنافي بين البرية والمدينة . ان العالم يريد أن يبطل نعمة الأبوة . وهو يفعل ذلك عن طريق التوجّه إليها بروح الفضولية والإكرام والتبجيل. انها أبوّة بالرّوح، أي إنها ترمي إلى أن تحقق الله لدى الناس ، أن تعكس « معنى » الله . انها تمثل جيل الذين « يلتمسون وجه إله يعقوب » لا وجه العالم . . .

القول الثاني والثلاثون

قال أبّا أنطونيوس : « أنا لا أخاف الله بعد الآن لأني أحبه فإن المحبة تطرد الخوف » (١ يو ٤ : ١٨) .

انه لحدث كبير ان نستطيع سماع هذا القول : « أنا لا أخاف الله لأني أحبه » . لم يقله ارتجالاً أو جزافاً بل عن معرفة روحية كاملة . لقد دخل سرّ الله وحياة الله نفسها .

فأصبح كل شيء بينه وبين الله نوراً ، نوراً لا يشوبه أي ظلّ ، أي تحفظ أو تردد أو حذر . لأن الخوف هو الذي يحدث الظل . أضاف لأني أجهل من أخاف فأحذر منه . أما المحبة فتسلّمني بجملتي إلى الآخر عندما أحبّ . ولا يكون حينذاك بين الإثنين جهل ، بل كل شيء نور ، كل شيء واضح معلوم . ان هذا القول ينمّ عن دالة صحيحة ومعرفة هائلة . انه بمثابة وصية أنطونيوس الأخيرة لتلاميذه ، على غرار وصية الرسول يوحنا الإنجيلي في رسالته الجامعة الأولى .

القول الثالث والثلاثون

وقال أيضاً : « ضعْ مخافة الله نصب عينيك دائماً . تذكر ذاك الذي يميت ويحيي (١ مل ١١ : ٦) . أبغضوا العالم وكل ما في العالم. امقتوا كل راحة جسدية. ازهدوا في هذه الحياة لتحيوا لله . تذكروا وعدكم له ، إذ أنه سيطالبكم به يوم الدين . كابدوا الجوع والعطش والعري والاسهار. نوحوا وابكوا وتنهّدوا من قلوبكم. امتحنوا أنفسكم هل أنتم أهل لله. تهاونوا بأجسادكم لتخلّصوا نفوسكم» .

ويبدو التناقض الواضح بين هذا القول والسابق : «خفْ الله دائماً . . . تذكـر أنه يحيي ويميت». يتبعه أنطـونيوس بإرشادات تقليدية غايتها تأمين عدم نسيان الطريق ، وعدم التوقف أيضاً في الطريق (الزهد والتعب والجـوع والسهـر والدموع . . .) . ثم يقول :«امتحن نفسك هل أنت أهل لله ؟». وهذا يعني اننا نستطيع بل أنه يجب أن نكون أهلاً لله ، و ان نمتحن أنفسنا في هذا الشأن . أمـا الجـواب الايجابي أو الشعور بالجواب الإيجابي فيعطيه الله : فنشعر حينذاك في آن واحد بعطيته لنا وبعدم استحقاقنا لها . نشعر بقبولنـا للعـطية مع تخطـي عدم استحقاقنـا . الجـواب الإيجابي هو في نسيان أنفسنا وتعميق بذلنا لذواتنا . فنثبت في ملء المحبة التي لا خوف فيها .

القول الرابع والثلاثون

توجّـه أبّـا أنطـونيوس يومـاً إلى أبّـا عمـون في جبـل النطرون ، ولما التقيا قال أبّـا عمّـون : « لقـد تكاثـر عدد الاخوة بفضل صلواتك حتى أن البعض منهم ينوون إقامة قلاليهم بعيداً ليعيشوا فيها حياة السكينة . فعلى أية مسافة من قلالينا ترى ان يبنـوا قلاليهـم ؟ » فأجـاب أبّـا أنطونيوس : « سنأكل في الساعة التاسعة (حـوالي الثالثـة

بعد الظهر) ثم نقوم فنطوف في البرية لنستطلع المكان . فسارا في البرية حتى غروب الشمس . وحينئذٍ قال أبّا أنطونيوس : « لنصلِّ وننصب هنا صليباً ليستدل منه الإخوة أين يبنون قلاياهم . وهكذا عندما يأتي الإخوة من هناك ليجتمعوا مع المقيمين هنا يبلغونهم في مثل هذا الوقت بعد ان يكونوا قد تناولوا وجبة خفيفة في الساعة التاسعة . وكذلك الذين ينطلقون من هنا ليزوروا الآخرين يفعلون الشيء نفسه . وعلى هذه الصورة يحافظون على يقظتهم الداخلية . وكانت المسافة إثني عشر ميلاً .

ونلاحظ هنا روح التدبير العملي في خدمة الحياة الروحية . ان الغاية من بناء القلالي على بعد اثني عشر ميلاً هي المحافظة على الوحدة التي قد يفقد الراهب بدونها كل مقتناه الروحي . ان روح الوحدة والسكينة والهدوء في صلاة دائمة هي حماية للراهب وهي في الوقت نفسه غاية وقمة في الحياة الرهبانية .

القول الخامس والثلاثون

قال أبّا أنطونيوس : « من يضرب كتلة من حديد يتبصّر قبلاً فيما ينوي عمله : أمنجلاً أم سيفاً أم فأساً . هكذا

علينا نحن أيضاً معرفة أية فضيلة نريد اكتسابها لئلا يذهب تعبنا سدىً».

كما أن الذي يضرب كتلة من حديد يتبصّر قبلاً فيما ينوي عمله : أمنجلاً أم سيفاً أم فأساً ، هكذا أنظروا أية فضيلة تريدون ان تبلغوا لئلاّ تتعبوا سدىً . ان الحياة الروحية لا تستقيم وتثمر في ضبط عشواء بل تتطلب تصوّراً مسبقاً وتصميماً وبصيرة . فإلى جانب التدبير العملي لا بدّ من التدبير الروحي البعيد النظر لكي تخصب المسيرة نمواً وكمالاً في الرب . لنذكر كيف أن أحد الآباء بقي إثنتي عشرة سنة يجاهد ويصلّي في سبيل اقتناء فضيلة الوداعة ،وكيف أن غيره كان يخصص عاماً بعد عام لإحكام فضيلة بعد فضيلة ، وكيف كان آخر يستهدف « رأس الأفعى » بين أهوائه ليهزمها ويكتسب الفضيلة المقابلة .

القول السادس والثلاثون

وقال أيضاً : « الطاعة والإمساك يخضعان الوحوش » .

ستظل تحاربنا الوحوش العقلية. وأمضى سلاح للتغلّب عليهاوالبقاء في أمان هو الطاعة والإمساك: أي قطع المشيئة مع التحفظ من كل إفراط. فإذا تمسكنا بها يهبنا الله نوعاً من

وقاية ومناعة نتسلط بفعلها على أشرس الشياطين. المسيح بطاعته للآب وعدم إرضائه لذاته قهر رئيس الشياطين.

القول السابع والثلاثون

وقال أيضاً : « اعرف رهباناً تكبّدوا أتعاباً جمة ثم ما لبثوا أن تاهوا وسقطوا لأنهم وضعوا رجاءهم في اعمالهم وأهملوا وصية القائل : « اسأل أباك فيخبرك » (تثنية ٣٢ : ٧) .

اسأل أباك فيعلّمك ، ولا تتكّل على أعمالك وأتعابك فتسقط في روح الكبرياء . انها طريقة للمثابرة في الطريق . اسأل قريبك فيساعدك وهكذا فإنك لا تنغلق على نفسك ولا تتعرّض لخطر السقوط الذي يداهمك حتى النهاية . . .

القول الثامن والثلاثون

وقال أيضاً : « على الراهب ان يُطلع الشيوخ ـ قدر الإمكان ـ على عدد الخطوات التي يخطوها وقطرات الماء التي يشربها في قلايته ليتأكد أنه على صواب ».

هو القول الأخير لأبّا أنطونيوس يحثّنا فيه على أن نطلع الشيوخ ـ ما أمكن ـ على عدد الخطوات التي نخطو وقطرات

الماء التي تشرب . إذا كنّا حقاً نحيا في حرارة الروح فلا نستطيع البقاء منزوين ومغلقاً علينا في أنفسنا ، بل ننفتح تلقائياً للآخرين ونشاركهم الحياة ونقول لهم كل شيء . جوّنا إذ ذاك يسوده الفرح والجرأة والأخوّة ، مع دوام السعي إليها للبقاء منفتحين كلياً للاخوة في فرح الاتصال بهم والشركة معهم عن طريق الكلام الذي يعبّر عن الاتحاد بهم .

خاتمـــة

« التمسوا ما وراء الكتاب المكتوب ، التمسوا الكتـاب المحفور إنجيلاً حياً محققاً في قلوب القديسين » .

إنجيل القديس أنطونيوس كان حياةً محفورة، مغروزة في الصحاري ، صحاري النفس البشرية ، ومواجهته لها بكل تعرُّجاتها وأهوائها العميقة ، لتخليصها من سائر الشوائـب التي كانت تعيق الروح عن الإنطـلاق لحفـر الكلمـة حياة وضياءً في حياتـه . فلا تكن حياة أنطونيوس الصحـراوية غريبة عنّا أو بعيدة عن التطبيق . جلّ ما فعل أنطونيوس أنه أحب الله . أحبه من كل قلبه وقوته وكيانه فصار « كَليم » الله وباباً لجهاداتنا نحن في صحاري نفوسنا وفي عمرنا .

ان سرّ نجاح القـديس أنطـونيوس هو تعلقـه بالمسيح ، ودوام مواصلة السير على دربه . حياته كلهـا كانـت سيراً مطرداً لا يعرف التوقف نحو الرب ، نحـو الضياء ، نحـو

الحياة الـكلية ، نحـو الغبطـة . وكان كل يوم يبـدأ من جديد ، فكان على هذه الأرض « سائحـاً » يسعـى نحـو المسيح ويتطلع إلى يوم لقائه .

فـاراد هذا الشرح « حـول أقـوال القـديس أنطـونيوس الكبير » أن يكون مدخلاً لكل مسيحي تتوق نفسه إلى الحياة بالرب والتوغل في نفسه لتنقيتها ودفعها للسير قـدماً نحـو الفرح والغبطة الدائمين بيسوع المسيح ربنا وإلهنا له المجد . آمين .

مطبعة النور

جان أبو ضاهر

١٩٩٥